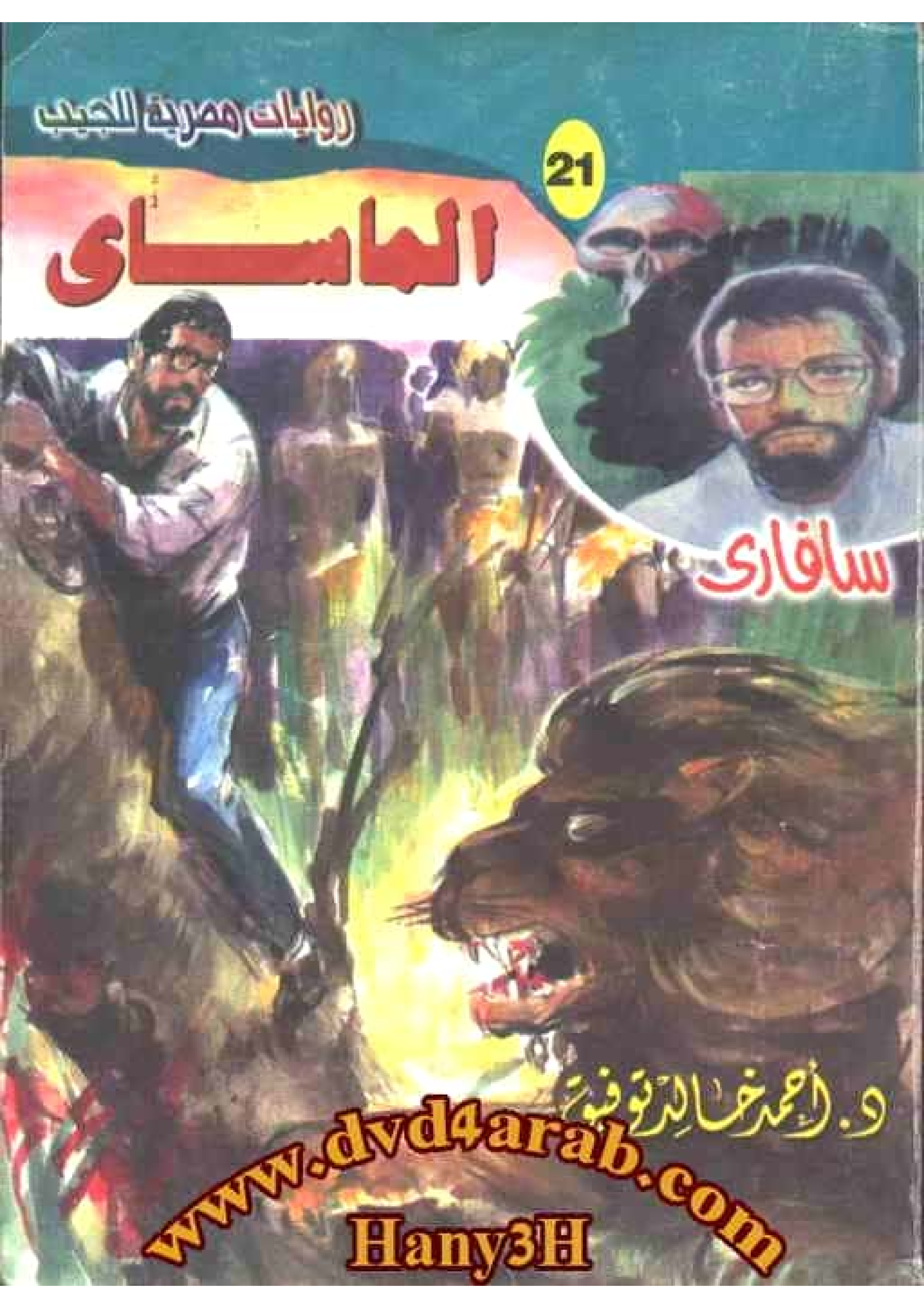

روايات مصرية للجيب
21
المأساة
سافاري
د. أحمد خالد توفيق
www.dvd4arab.com
Hany3H

مقدمة

(سافارى) مصطلح غربى تم تحريفه عن كلمة (سافرِيّة) العربية .. وحين يتحدثون عن الـ (سافارى) فهم يتحدثون عن رحلات صيد الوحوش فى أدغال (إفريقيا) ..

لكن وحدة (سافارى) التى سنقابلها ها هنا كانت تصطاد المرض فى القارة السوداء .. ووسط اضطرابات سياسية لا تنتهى .. وبيئة معادية .. وأهال متشككين ..

بطلنا الذى سنقابله دومًا ، ونألفه ، ونتعلم أن نحبه هو د. (علاء عبد العظيم) .. شاب مصرى ككل الشباب .. اختار أن يبحث عن ذاته بعيدًا وسط أدغال (الكاميرون) ، وفى بيئة غريبة وأمراض أغرب وأخطار لاتنتهى فى كل دقيقة ..

وفى هذه الروايات نقرأ مذكرات د. (علاء) .. نعيش معه ذلك العالم العجيب الذى لم تنجح الحضارة فى تبديل معالمه ..

سنلقى الكثير من الفيروسات القاتلة .. والسحرة المجانين .. وأكلة لحوم البشر .. والمرتزقة الذين لايمزحون .. وسارقى الأعضاء البشرية .. والعلماء المخابيل ..

سنلقى كل هذا .. ونلقى محاولات طبيبنا الشاب كى يظل حيًا .. وكى يستطيع فى الوقت ذاته أن يظل طبيبًا ..

تعالوا نلحق بوحدة (سافارى) فى (الكاميرون)..

تعالوا ندخل الأدغال ونجوب (السافانا) ونتسلق البراكين ..

تعالوا نواجه المرض مع فريق (سافارى) ..

★ ★ ★

الليلة الأولى

مرحبًا بكم ..

أنا (كوتانجا) .. ليس هذا اسمى الذى أعرف به هنا فى (ممباسا) .. إن هذه الأشياء للورق فقط ولاتعنى شيئًا ، أما بين أبناء جلدتى فأنا أدعى (مزى) .. (مزى) بالسواحلية معناها (العجوز الحكيم) ، ويمكنكم أن تفهموا لماذا أفضل أن أكون (مزى) على أن أكون (كوتانجا) .. هناك من حولى ألف (كوتانجا) لكن هناك (مزى) واحد فقط هو أنا ..

أنا عجوز .. وبالنسبة لقريتى ليس لى دور مهم .. فأنا لست قويًا لأرمى بالرمح ، ولا أستطيع الصيد ، ولا أصلح للرعى أو الزراعة بأعوامى التى تجاوزت المائة ..

لكن الجميع يحبوننى ويجلوننى ، وحين يذبحون ثورًا يقتطعون لى قطعة كبيرة طرية لألوكها بلذة ..

وحين تجيء ليالى الشتاء الباردة ، تشعل لى النسوة النار ويقدمن لى الكاسافا ..

لأنى أعرف ..

لأنى أحكى لهم قصصًا تسحرهم كل ليلة ..

لأن لسانى يتحرك كثعبان الماء ، ينزلق فى كل صوب ولايكف عن الحركة أبدًا إلا يوم أموت ..

وفى المساء يشعلون النار ، ويلتف الرجال المنهكون من حولى ، ويقدمون لى التبغ كى أمضغه ، ويجلسونني على جذع هذه الشجرة المقطوعة الذى صار كمقعد شامخ ..

ويهتفون بى : هلم (مزى) .. قص علينا قصة أخرى ..

أرى النسوة جالسات عن بعد ، والصبية كفوا عن اللهو وجلسوا يترقبون قصتى التالية بعيون واسعة .. عيون تحجرت فيها الدموع بسبب السهر وبسبب وهج النار ..

اليوم أراكم أيضًا تلتفون حولى ، فأرحب بكم وأدعوكم ياسادة إلى أن تدنوا من النار قليلاً لتسمعوا أفضل وتروا أفضل .. تروا ؟ نعم ! إن تعبيرات وجهى تنقل لكم القصة كأنكم ترونها .. ترون وجه ومخالب وأنياب الأسد الثائر ، وهيام (موجانا) برجلها ، وغضبة الملك الشرير (موتيزا) ..

نعم .. إن مشاهدة (مزى) يا سادة لاتقل سحرًا عن سماعه ..

سأحكى لكم اليوم قصة ممتعة ، لكنها لاتتعلق بالأجداد .. إنها تتعلق بالحاضر وأبناء الحاضر .. ولسوف تجدون أنها لم تضيع سهركم سدى .. إن (مزى) يعرف متى وكيف يكف عن السرد حين يشعر بأن مستمعيه غالبهم النعاس ..

ضعوا المزيد من الحطب فى النار واصغوا إلى ..

* * *

كانت هناك وحدة (سافارى) فى (بورو) على ضفاف بحيرة (تانا) ..

وكان هناك طبيب مصرى شاب اسمه (علاء عبد العظيم) .. الطبيب متزوج ، وزوجته الكندية الحسناء اسمها (برنادت) .. قد يراها البعض جميلة - وأنا أراها كذلك - وقد يراها البعض عادية ، لكن الجميع يجمع على رقة حاشيتها ولطفها ومرحها ..

الطبيب لم ينجب بعد لأنه متزوج حديثًا ، ثم إنه يخشى الإنجاب لأنه لا بيت له إلا تلك الغرفة الواسعة فى الوحدة .. وإنجاب طفل فى مستشفى ليعيش هناك .. ليس بالضبط تجربة مريحة جدًا ..

إن (علاء عبد العظيم) يا سادة لم يعتد أن يكون هنا ..

لقد جاء من بلاد لم أرها إلى بلاد لا أعرفها .. جاء من الشمال حيث يجرى النهر العظيم إلى البحر ، واتجه إلى الغرب حيث بلاد (البانتو) .. ثم جاء إلينا هنا ..

يقال إنه متهور مندفع ، لكنه يحمل قلبًا طيبًا .. والمرء قد يطيش وقد يتهور لكنه يعود دومًا إلى ما يمليه عليه قلبه ..

إنه سعيد يا سادة .. سعيد .. خاصة وهو قد خرج سالمًا من مآزق خطيرة وفاز بمحبوبة قلبه ، التى هام بها منذ جاء إلى (سافارى) .. وهو يمر الآن بفترة لابأس بها من الهدوء .. لا جديد تحت الشمس .. يقوم بجولاته المعتادة على قرى (الكيكويو) يكافح المرض الأسود الكريه .. ثم يعود ليستريح يومًا فى غرفته ..

إنه يفكر جديًا فى العودة إلى وحدة (سافارى) القديمة ، خاصة والخطر الذى تكلموا عنه يبدو مبالغًا فيه .. جاء إلى هنا هربًا من انتقام عبدة الأفاعى ، لكن أحدًا لم يسمع عن هؤلاء القوم ثانية ..

إنه ما زال يشعر بالحنين لوطنه الثانى .. يترك المرء منا وطنه الأول إلى وطن ثان ، فيحرقه الحنين إلى وطنه الأصلى .. ثم يتركهما إلى وطن ثالث فيحرقه الحنين إلى الوطن الثانى .. وهكذا ..

يبدو أنه اتصل بالوحدة فى (الكاميرون) ويبدو أنهم طلبوا منه الانتظار لأن انتدابه لم ينته بعد .. عليه أن ينتظر ..

* * *

للمرة العاشرة نام ، وللمرة العاشرة لم يدر هل هو يحلم أم أن هذه حقيقة لاشك فيها ..

كان واقفًا وحده وسط الأدغال .. أدغال صامتة حزينة باردة نوعًا .. لاشىء من حوله ولا حتى هواجسه .. فراغ مطلق مجرد ..

ثم سمع صوت الإنشاد ..

رآهم فى البداية كبقع من الظلال تتراءى فى كل مكان ، ثم بدءوا يركضون نحوه ، والركض كان بالسرعة البطيئة كما يحدث فى السينما لإضفاء تأثير درامى معين .. أنتم لاتعرفون هذه الأمور لكننى (مزى) ، وعلى (المزى) أن يتعرف كل شىء ..

رآهم يركضون نحوه والظلال تغلف معالمهم ..

شعورهم الطويلـة تتطـاير فـى الهـواء ، وهـى ليست شعورًا بل هى لبدات أسود وضعوها علـى رءوسـهم .. الرمـاح فـى أيديهـم ، وثمـة صـوت غـامض مخيـف يخرج من بين شفاههم المغلقة : هفه ! هفه !

قاماتهم الفارعة تجعلهم لايبدون بشرًا .. ربما هم أقرب إلـى ظـلال حيـة مستقلة لهـا القدرة علـى أن توجد دون أجساد ..

كانـوا يركضـون نحـوه بتلك الخطى الواسـعة التى تطوى الأرض طيًا ..

وأدرك أنه ضاع ..

أدرك أنه لا وقت للفرار أو التراجع ..

أدرك أن الصراخ هو أمله الوحيد ، وهو أمل واه لكن لايوجد سواه ..

وصرخ الرجل يا سـادة .. صـرخ .. هـذا الصـراخ المكتوم الذى لايحقق أية نتـائج ..

وكالعادة ـ للمرة العاشرة ـ يصحو فى الفراش ، ليجد (برنادت) الباسلة تربت على ظهره بقوة ، وهى تكرر :

ـ « هذا لا شىء .. هذا كابوس .. أفق ! »

فينهض وينظر للغرفة بعينين غبيتين ، ويجفف العرق الذى نبت على جبينه بكم منامته ويقول :

ـ « نفس الكابوس مرة أخرى .. »

ـ « يبدو أن ضميرك مثقل بالآثام ! هل هناك واحدة أخرى ؟ »

ينفث الهواء المحبوس فى رئتيه ويسألها للمرة العاشرة :

ـ « ماذا أكلت فى العشاء ؟ »

ـ « لم تأكل ! »

ـ « هذا هو السبب .. إن الطعام الدسم والنوم على الظهر هما الطريقة المثلى للإصابة بالكوابيس .. »

ـ « قلت إنك لم تأكـ ... »

لكنـه يكون قـد عـاد إلى النـوم ثانية ، راضيًا عـن نفسـه وعن الحيـاة التـى لا يطـاردك فيهـا محـاربون فارعو القامة يضعون الفراء على رءوسهم ..

* * *

كان يحسب أن الأيام ستمضى هادئة لمجرد أنه يريد ذلك ..

لكن مشكلة ما كانت فى الطريق كالعادة ..

ولم يكن المستقبل بهيجًا إلى هذا الحد ..

* * *



الليلة الثانية

مرحبًا بكم ..

كنت أتحدث ليلة أمس عن الدكتور (علاء عبد العظيم) الذى يقضى أيام منفاه هنا فى (كينيا) .. صحيح أن شيئًا لم يحدث فى تلك الليلة مما يدفعكم إلى انتظار حكاية الليلة فى شغف، لكنكم تعرفون أن القصص لاتبدأ من ذروتها، وأن هناك فترة ما فى البداية يتحملها حتى أسرع القراء مللاً، هذه هى الفترة الوحيدة التى يتاح للراوى فيها أن يسرد كل ما لايهم القارئ ..

الحقيقة أن (علاء) بدأ يحرز بعض النجاحات هنا، وقد لازمه دومًا صديقه الفرنسى (سينوريه) أستاذ طب المناطق الحارة واسع العلم، والذى بدأ إلى حد ما يحتل مكان صديقه القديم (آرثر شيلبى) .. وإن كان

(سينوريه) يفتقر إلى غرور الأخير وحذلقته .. وإن كان ـ كذلك ـ يفتقر إلى جاذبيته الشخصية والكاريزما المنبعثة منه .. إن (سينوريه) رجل تحترمه وتثق به فقط، بينما (شيلبى) رجل تغتاظ منه وتحبه معًا !

ما زالت علاقات (علاء) سيئة كالجحيم مع المدير (ستيجوود) الطاووس المغرور ثقيل الظل .. لكنه قد علم نفسه أن يتأقلم .. نحن لانملك أبدًا أن نختار آباءنا ولا رؤساءنا فى العمل .. ولو استطعنا لصارت الحياة جنة !

* * *

لم يجد (علاء) قط الوقت الكافى لاستكشاف هذا البلد العامر بالأسرار (كينيا) ..

حين يتحدث الرجل الأبيض عن إفريقيا فهو يتحدث فى الواقع عن (كينيا) و(الكونغو) و(أوغنده) حيث أكثر أقطار إفريقيا إفريقية ..

يتحدث عن جبل (كليمنجارو) المهيب العظيم .. أعلى جبال إفريقيا الذى تكسوه عمامة من الثلج الأبيض،

ولهذا تعنى كلمة (كلمنجارو) الجبل الأبيض .. إن ذروته الغربية عالية شامخة طالما أطلق عليها (الماساى) اسم (نجاجى نجاى) ومعناها (بيت الله) .. هناك يصير التنفس صعبًا عسيرًا ويندر الهواء وتتعالى ضربات القلب .. تمر أيام قبل أن تدخل فى (متلازمة التكيف) ويتعلم جسمك كيف يعتاد هذا الارتفاع الشاهق ..

خلد أديب أمريكا العظيم (هيمنجواى) هذا الجبل فى روايته (ثلوج كليمنجارو)، وارتبط فى ذهن الناس بفهد جريح يصعد إلى هناك ليموت ويكون قبره خالدًا وسط الثلوج ..

يتحدث الغربى عن قطعان الحمار الوحشى والزراف والنعام .. تلك التى دنت من الانقراض لولا قوانين تحريم الصيد، حيث صارت الآن تعيش فى أكبر محميات طبيعية فى العالم ..

يتحدث الغربى عن العاصمة (نيروبى) التى تقع فى وهدة تجعلها عرضة لسقوط الأمطار عليها من المرتفعات المحيطة بها، وهو موضع غريب بالنسبة

لعاصمة يوحى بأن خطأ كبيرًا حدث عند إنشائها .. وفيها ترى مساكن الهنود الفاخرة أولئك الذين تخلفوا عن الاستعمار البريطانى، واكتنزوا الذهب والفضة فكان ثراؤهم فاحشًا .. بينما يسكن الأوروبيون منطقة قرب المطار تدعى التل ..

يتحدث الغربى عن الوادى المتصدع العظيم .. ذلك العيب الجيولوجى المثير للذهول بحجمه واتساعه ..

يتحدث الغربى عن قبائل (الكيكويو) التى تعيش هنا ..

وعن (الماساى) ..

★ ★ ★

فى ذلك اليوم خرجت الحملة كعادتها إلى إحدى قرى (الكيكويو) قرب جنوب البلاد .. هذه القرية تدعى (ناكومو) فى منتصف المسافة بين (ماكندو) والحدود التنزانية .. وكانت الحملة تتضمن الدكتور (علاء) وممرضتين والمترجم المعتمد للحملات (تارو) ..

والهدف ـ كالعادة ـ هو ملاحقة الداء الأسود (كالا آزار) الذى يترعرع هنا بنشاط، وله أكثر من برنامج خاص بالصحة العالمية لكن وحدة (سافارى) تعمل مستقلة وبعيدًا عن الضوضاء .. لسبب ما لايريد أحد أن ينسق معها .. ولأسباب واضحة لاتريد هى التنسيق مع من يسرق منها الأضواء ويلغى جهود خبراتها ..

المكان بعيد حقًا ، والطريق مرهق بحق .. لكن (علاء) قد اعتاد هذه الأشياء ، ومن جديد نقول : نحن لانملك أبدًا أن نختار أماكن عملنا .. ولو استطعنا لصارت الحياة جنة !

يجب أن نقول هنا إن طائرة الهليكوبتر كانت وسيلة التنقل فى هذه البقاع البعيدة ، وكان (علاء) يجلس جوار النافذة والهواء يتخلل لحيته ، وهدير المحركات يصم أذنيه ، بينما هو ينظر فى شغف إلى الجبل العملاق : (ماونت كينيا) .. ثانى جبال إفريقيا ارتفاعًا بعد (كليمنجارو) .. البركان الخامد القديم ،

الذى تكسو قمته الغابات .. غابات من الأرز والكافور والبامبو ، بينما تنحدر جوانبه إلى ما يشبه غابات الألب .. وليست للجبل قمة واضحة على كل حال لأن عوامل التعرية التهمت أكثر هذه القمة ..

إن الوادى المتصدع العظيم يوجد جزء لابأس به فى (كينيا) لكنه كبير جدًا إلى حد أنك لاتستوعب وجوده .. تحتاج إلى أن تكون على ارتفاع أكبر كى تراه .. ربما تحتاج إلى أن تكون فى قمر صناعى أو سفينة فضاء .. (أنتم لاتعرفون هذه الأشياء لكنى مزى ويجب أن أعرفها) .. ولكى تتصور مدى ضخامته يجب أن تعرف أنه يبدأ فى فلسطين (البحر الميت) شمالاً إلى (موزمبيق) وبحيرة (نيازا) جنوبًا .. أى أن امتداده خمسة آلاف ميل .. وهو نتيجة ذلك التشنج الأليم الذى حدث يومًا ما فى قشرة الأرض فجعلها تهبط فى الوسط وترتفع على الجانبين ..

تهبط الطائرة فى (ناكومو) مثيرة الغبار المعتاد ، ويتحلق الأهالى حول القادمين من السماء ..

هنا يتكلم القوم لغة غريبة اسمها (الما) .. وهى من لغات غرب النيل .. لكن ـ كما تعرفون الآن ـ يمكنك التفاهم فى أى مكان هنا باستعمال اللغة السولحلية التى نسميها (لينجوا فرانكا) .. وطبعًا يتكفل (تارو) بالترجمة ..

صار لـ (علاء) عدد لا بأس به من الأصدقاء فى هذه القرية ، وبرغم أن لغة التفاهم معدومة ، فمن قال إن التفاهم يحتاج إلى كلمات ؟ يدنو منه أحد الرجال فيضحك كاشفًا عن فم ليست فيه سن واحدة ، ويقول وهو يضع يده على كتفه :

ـ « موها .. جوه ! »

فيرد (علاء) بـ (موها جوه) وهو يعرف أنها على الأرجح تحية ما .. ثم يشير الرجل إلى معدته ويقول كلامًا كثيرًا فيفهم (علاء) أنه يتحدث على الأرجح عن سوء هضم أو قرحة معدية .. الأطفال أيضًا أمرهم هين فكلهم يبصق ويجرى .. ما دور اللغة هنا ؟ ما دمنا لسنا بصدد مناقشة فلسفة (الجشتلط) فلا أهمية للغة إلى هذا الحد ..

نعود إلى يومنا هذا الذى كان ـ بحق ـ هو بداية القصة ..

لقد فرغ (علاء) من فحص حالات المرض الأسود التى يقوم بمناظرتها ، وتأكد من أنها تتحسن وأن عقار (بنتوستام) القديم المخلص لم يزل مخلصًا كما عرفناه .. لقد مرت فترة لا بأس بها منذ انتشر ذلك المرض الغريب الذى لا يستجيب لأى علاج ، كما عرفنا من قبل .. كانت الممرضات يعطين الحقن بينما يقوم هو ببعض الفحوص .. يتابع العقد الليمفاوية وحجم الطحال والكبد ودرجات الحرارة .. الخ ..

رفع (علاء) عينيه ليجد مجموعة من الرجال تتقدم منه وقد بدا عليهم الاهتمام والخطر ..

كان الرجال يشيرون إلى أحد الأكواخ .. وأكواخهم هنا ـ بالمناسبة ـ تتكون من أعواد البامبو التى تم لصقها بروث الأبقار ، ويسمونها (كرآل) .. ففهم (علاء) على الفور إن هناك مريضًا يجب أن يذهب ليراه ..

كانت الساعة السادسة مساءً حين دخل (علاء) ذلك الكوخ ليجد رجلاً راقدًا على جلد بقرة فى ركن المكان .. جوار الرجل دن فخارى به بعض اللبن .. وقصعة صغيرة بها الكاسافا .. باختصار : جواره كل ما يحتاج إليه مريض فى خطر ..

دنا (علاء) أكثر واستطاع أن يفهم أن ما بالرجل ليس حمى ولا هو المرض الأسود .. لقد كانت الدماء تلوث الغطاء الموضوع فوقه كما تلوث جلد البقرة .. وهؤلاء القوم تركونا هنا ثلاث ساعات دون أن يقولوا شيئًا .. كأنما الكلام عن الجرحى نوع من إساءة الأدب ..

وعلى الضوء الخافت القادم من خارج الكوخ ، جثا (علاء) على ركبتيه وتفحص الرجل قبل أن ينزع الغطاء .. رباه ! كان الجرح بليغًا بالغًا .. جزء لا بأس به أبدًا من جدار البطن لم يعد موجودًا وثمة تهتك واضح فى الأنسجة .. إن (علاء) جراح بالفطرة ، ويؤمن أن الجراحة هى العلم الوحيد المؤهل للدخول إلى عقله



دخل (علاء) تلك الكوخ ليجد رجلاً راقدًا على جلد بقرة فى ركن المكان ..

من بين كل العلوم التى تشكل ذلك الكيان المعقد المسمى (الطب) .. وقد استنتج بمجرد النظر أن طحال الرجل تهتك تمامًا وأن كبده ليس على ما يرام .. كما فهم إذ تحسس معصمه أنه لا يشعر بالنبض تقريبًا .. هذه صدمة فى المراحل الأخيرة منها ، ولا داعى لإضاعة المزيد من الوقت .. إن عمله هنا هو المرض الأسود لكننا نذكر المستمعين أننا لا نملك دائمًا أن نختار نوعية عملنا .. ولو استطعنا لصارت الحياة جنة !

نادى الممرضة فى هستيريا ، وبدأ فى إجراء الإسعافات الأولية لهذا البائس .. لابد من أن تعود طائرة الهليكوبتر حاملة هذا الصيد الجريح .. ولكن هل يتسع الوقت لأى شىء ؟

قال له المترجم (تارو) وهو يتأمل ما يحدث فى نوع من عدم الاكتراث :

ـ « اسمه (أوناجاى) .. »

قال (علاء) وهو يبحث عن وريد لا وجود له فى ذراع الرجل :

ـ « حقًا ؟ هذه معلومات مهمة جدًا .. »

كان ـ الأحمق ـ يعتقد أنه من العسير أن تنقذ حياة شخص لاتعرف اسمه..

ـ « يقولون إنه فهد .. »

ـ « فهد ؟ »

كان هذا واضحًا على العموم .. لايستطيع إنسان ولا آلة أن يحدث هذا النوع الغريب من التمزق .. هذا عمل حيوان مفترس لاشك فيه ، وقد رأى (علاء) عددًا لابأس به من هذه الجروح فى وحدتى (سافارى) فلم يعد يجد صعوبة فى تمييزها حين يراها .. والقصة دائمًا تتحدث عن الوحش العجوز الذى لم يعد قادرًا على مواصلة الصيد .. فقرر أن يختار الضحية الأبطأ والأضعف : الإنسان .. بالتحديد النساء والأطفال .. أين ؟ عند النهر دائمًا .. وتستمر الضوضاء وخطف الماشية لفترة ثم يأتى صياد حكومى لينهى الأمر ويقبض أجره .. نفس القصة تتكرر فى كل صوب من إفريقيا الاستوائية ..

كان الدم يتسرب من الجروح بسرعة ، وشعر (علاء) بالخطر .. إنه يضيع وقته .. الجروح أكثر مما يجب والأمر يحتاج إلى عشرة رجال يحاولون سد كل ثقوب السد المنهار ..

فى النهاية أصدر تعليماته إلى المترجم كى يصدر تعليماته إلى الزعيم ، كى يصدر تعليماته إلى مرافقيه ، كى يصدروا تعليماتهم إلى الرجال كى يحملوا الرجل إلى الهليكوبتر .. إن الاتصالات هنا لا تتم بسرعة أبدًا ..

وعلى ضوء الغروب هرع الجميع إلى الطائرة وهم يحدثون من الصخب والضوضاء ما يحتاج إلى مليون شخص ..

ـ « يجب أن نعود الآن .. إن الظلام قد حل .. »

قالها قائد الطائرة الكينى وهو يتأمل ما وضعه الرجال له فى الطائرة ..

ـ « جميل .. هذا ما كنت أنوى أن أقوله لك .. أنت تتحدث بلسانى .. »

ـ « والحمولة أكثر من اللازم .. إن الطائرة ثقيلة أصلاً .. الآن تحمل الجرحى الذين نقابلهم بلا تحفظ .. »

استند (علاء) إلى جسم الطائرة وراح يتأمل وجه الطيار الذى يطل عليه من النافذة أعلى رأسه .. كان يضع الخوذة ومكبر الصوت يلامس شفتيه ، فبدا كأنه قادم من عالم آخر .. عالم لا يحمل طياروه أكثر من حمولتهم ..

ـ « والحل ؟ لن أتركه هنا .. »

مط الطيار شفته السفلى بمعنى أن الأمر ليس مشكلته وأضاف :

ـ « لو كان الاختيار لى لبقيت أنا هنا وعدتم أنتم .. لكن هذا عسير بعض الشىء لو كنت تفهم ما أعنيه .. »
ثم أشار إلى الممرضتين وقال :

ـ « ربما كان من الممكن أن نتركهما هنا ؟ »

ـ « ليس هذا من حقى .. قرية غريبة بعيدة ترغمان على المبيت فيها .. وكذلك (تارو) .. لا أستطيع أن أتخذ القرار لأحد .. »

وحك (علاء) رأسه وهتو يتأمل الجريح الذى ينزف آخر لترين من دمه الآن .. كان القرار صعبًا لكنه يجب أن يتخذ بسرعة .. فى النهاية قال فى حسم :

ـ « لا يوجد حل آخر .. سأبيت هنا أنا ! »

ـ « لكنى لن أعود إلا فى الصباح يا دكتور .. »

ـ « أعرف هذا .. لهذا قلت إننى سأبيت .. »

ثم تذكر (علاء) فخط فى ورقة بضع كلمات وناولها إحدى الممرضتين ، وطلب منها ألا تنسى أن تعطيها زوجته .. من العسير أن يبيت المتزوج خارج الدار دون إذن زوجته ، فكيف لو كان ينوى المبيت فى قرية (كيكويو) قرب الحدود ؟

تم الاتفاق بسرعة .. على الأقل لم يكن هناك من هو على استعداد للارتماء على العشب ، والصراخ وضرب الأرض بقبضتيه محاولاً إقناع (علاء) بألا يفعل .. ورلحت مروحة الهليكوبتر تدور ببطء ، ثم اكتسبت السرعة ، ولوح الطيار بذراعه ، بينما ابتعد القوم وهم يرون الطائر الحديدى يرتفع فوق الأرض .. يدور فى الهواء ثم

يبتعد .. طائر أسود يرحل نحو الأفق الشمالى الشرقى الذى صار مظلمًا .. وفى الغرب سالت دماء الشمس بعدما انتهت معركتها الأخيرة مع الليل بالهزيمة المهينة ..

وتنهد (علاء) .. ستكون ليلة شاقة .. بدلاً من الفراش المريح وضحكات (برنادت) وثرثرتها ، سيكون عليه أن ينام على جلد البقرة فى كوخ ألصقت جوانبه بروث نفس البقرة ! والفظيع أنه سيسمع الكثير من لغة (الما) التى تذكرك بصوت انسداد بالوعة المطبخ ..

ولم يكن (علاء) يعرف أن ليلته ستكون شاقة بالفعل .. لكن ليس كما يتصور !

أراكم تتثاءبون وتفركون عيونًا حمراء يا سادة ، لهذا أوثر أن أتوقف عن السرد عند هذا الجزء ..

موعدنا غدًا عندما يجن الليل كى أحكى لكم ما حدث للطبيب الشاب فى ليلته تلك ..

* * *

الليلة الثالثة

مرحبًا بكم ..

هل فرغتم من حلب الأبقار وإغلاق الحظائر ؟ وهل فرغت النسوة من طحن الحبوب وعجن الكاسافا ؟ هذا جميل .. يبدو أن يومكم كان حافلاً وأنكم تستحقون سماع قصة مسلية من (مزى) العجوز الحكيم ..

هل هذا تبغ ؟ شكرًا .. لم تعد لدى أسنان صالحة لمضغ الطعام ، لكنى أجد دائمًا فى لثتى ما يمكننى من مضغ التبغ .. يقال إن بعض الناس يحرقونه وينشقون الدخان .. أنا لم أجرب هذا ويبدو لى غريبًا بما يكفى ..

نعود الآن لقصتنا ..

أين توقفنا ؟ آه ! عندما أرغم الطبيب الشاب على قضاء ليلته مع (الكيكويو) فى قريتهم (ناكومو) ..

لم يكن قد استعد للمبيت ، لهذا كان الحل الوحيد أمامه أن يجلس أمام النار حتى يغلبه النعاس ، فينام حيث هو ، ثم يصحو فى الصباح داعيًا الله أن تصل الطائرة سريعًا ..

جاءه أصدقاؤه ببعض الخبز المصنوع من الموز .. وهو يجده لذيذًا .. على الأقل هو أفضل من الكاسافا التى لم يعد يطيقها .. لكن (الكاسافا) هنا فى قرى (البانتو) تلعب دور القهوة فى الجزيرة العربية .. شربها من التقاليد ورفضها إهانة .. لابد من أن تشرب قدحًا واحدًا على الأقل من القهوة ، وتدس فى فمك حفنة من الكاسافا الشبيهة بالبطاطا المهروسة ..

كان القوم ينظرون له ويضحكون كاشفين عن أسنانهم .. مما أشعره بالحرج ..

كان التفاهم مستحيلاً .. لأنه لايعرف حرفًا من لغتهم وهم لايعرفون حرفًا من لغته .. وقد راح يحاول بالإشارات أن يستفهم :

ـ « فهد ؟ رورررر ! تقولون (فهد) ؟ »

فكانوا يهزون رءوسهم فى ذكاء ويضحكون أكثر .. وبعض الأطفال راق لهم الأمر فراحوا يزأرون مثله .. رورررر ! رورررر ! لو كان هذا يتعلق باسم الوحش فقط فكيف يمكن التفاهم بصدد القصة الكاملة ؟

رورررر ! روررررر ! ثم ...

روررررررر !

تلاحظون أن هذه الأخيرة أعلى وأكثر عمقًا ، وأنها جعلت القلوب ترتجف فى الصدور ..

وبالفعل تجمد الجميع ، ووثب الأطفال إلى صدور أمهاتهم بينما توتر الرجال وتشمموا الهواء .. كان زئيرًا غريبًا لم يسمع مثله (علاء) من قبل .. زئير

يأتى من الأحراش المظلمة على مرمى البصر ..
ربما من (ماونت كينيا) نفسه .. زئير يجعلك
ترتجف لأنه يشعرك بأن هناك شيئًا ما ينتظر .. شيئًا
خارقًا جاء من العالم الذى تأتى منه البراكين
والفيضانات والزلازل وكل قوى الطبيعة الكاسحة
التى لا يمكن ترويضها .. شيئًا لا ينام الليل والويل
لمن كان وحده فى السافانا الآن ..

نظر (علاء) للرجال فى تساؤل فشرح له أحدهم الأمر:

ـ « موجا .. بوه .. أونجا .. شاكا .. موه .. »

الأمر الذى لم يحسن الأمور كثيرًا كما لا بد أنكم
لاحظتم .. كان (علاء) يريد معرفة صاحب هذا
الزئير .. هل له علاقة ما بالرجل الجريح ؟ هل سيهجم
هذا الوحش عليهم ؟

وما لم يعرفه (علاء) هو أن الأسد يزأر ثلاث مرات ..
فى الليلة .. قبل الصيد .. بعد الصيد .. عند بزوغ الفجر ..
هذه أمور نعرفها نحن كأسماتنا لكنه بالطبع لا يعرف ..

ثم ساد الهدوء من جديد ..

تقدم إلى مكان النار عجوز مثلى يلبس جلد النمر على كتفيه ، وتربع على بعد أمتار من (علاء) .. كان قبيح الوجه مثلى ليس فى فمه سن واحدة ، وله جلد مجعد كالسحلية .. لكنه كان يتمتع بمكانة عالية بين قومه كما هو واضح ..

راح العجوز يتمايل للأمام والخلف ، ثم بدأ يحكى أساطير القبيلة .. يحكيها بنبرة غنائية رتيبة خفيضة تعلو وتهبط .. ومن حين لآخر يصفق كل الجالسين مرة واحدة قائلين :

ـ «شاكا ـ موه !»

ثم يعود الرجل لغنائه الرتيب .. وبدأ (علاء) الذى لا يفهم حرفًا مما يقال يجد بعض التسلية فى توقع اللحظات التى سيصفق فيها الجالسون .. ولم يدر أنه إنما يعد غنمه بطريقة أخرى .. فالحقيقة هى أن هذه كانت الطريقة المثلى للنعاس .. ربما وصف

أطباء التخدير هذه الأغنية فيما بعد باعتبارها الوسيلة الأنسب لإعداد المريض قبل الجراحة ..

لم يدر (علاء) كيف ولا متى نام جالسًا ..

ولا كم من الوقت نام ..

* * *

صحا والظلام يخيم على المكان ، ولحسن حظه كانت بقايا النار تضطرم وإلا لجن ...

من دون هذه النار يصعب عليك أن تعرف إن كنت قد أصبت بالعمى أم لا .. إلا لو تذكرت طبعًا أن تنظر لأعلى لترى النجوم لامعة براقة كما خلقها الله ، قبل أن يغمرها صدأ المدينة .

أين هم ؟

نهض (علاء) وراح يتلفت حوله .. غريب هذا .. هل أخلد القوم إلى النوم فى أكواخهم هكذا وتركوه ؟ لو كان هذا صحيحًا فهم لا يتمتعون بالشهامة .. كم الساعة الآن ؟

نظر إلى قرص ساعته الفوسفورى (فلنحيى الفوسفور خمس مرات !) .. فوجد أنها الثانية صباحًا ..

وضع كفيه حول فمه كمكبر الصوت ونادى بصوت عال :

ـ «يا رجاااااااااال !»

طبعًا لا داعى للترجمة لأن الصياح لغة عالمية ، لكن رجع الصدى عاد ليتكوم عند قدميه محزونًا مهشمًا ..

بدأ يقلق .. وفى هذا كان تفكيره أبطأ مما يجب .. من الواضح تمامًا أن هناك شيئًا ما ليس فى موضعه .. اقتبس جذوة من النار ومضى يتفقد أقرب الأكواخ هناك ..

كانت الأكواخ خالية تمامًا .. واصل البحث والنداء بلا جدوى طبعًا .. وفى هذه المرة بدأ الهلع يتولى السيطرة على ملكوت عقله .. وحيد .. وحيد تمامًا بلا تفسير ..

وحيد فى قرية من قرى (الكيكويو) المنسية على حدود (تنزانيا) .. وهو لا يعرف أبدًا أين

اختفى القوم ولا لماذا اختفوا .. فلولا بقية من احترام للذات لبكى هلعًا وفرقًا .. لكنه كان يملك موهبة خاصة هى قدرته على أن يرى نفسه من الخارج ، وكان مشهد رجل بالغ مثله ملتح وهو يبكى مخجلاً ، إلى حد أنه لم يجرؤ على التفكير فى ذلك ..

ثم سمع صوت الزئير ..

* * *

كان زئيرًا خافتًا يوحى بالتلصص .. ربما هو شبيه بقرير القط الجالس على حجرك فى ليلة دافئة ، لكنه مألوف ومعروف .. كل عائلة السنوريات تملك هذه الحبال الصوتية القوية التى تتذبذب مع الزفير ..

هناك أسد هنا .. أسد غير بعيد ..

ربما لهذا السبب هرب القوم وتركوه ..

ماذا يفعل ؟ يطفئ اللهب ؟ ربما كان هذا صوابًا لكنه الآن ضعيف هش والرؤية هى سلاحه الوحيد .. لايمكن التضحية بهذا السلاح خاصة وأن الأسود تشم ببراعة .. ربما قبل أن ترى ..

مشى بين الأكواخ وهو يتوقع فى كل لحظة أن يرى الأسد أمامه ..

لقد رأى الجراح التى تركها فى بطن الرجل ـ لو كان هو من فعلها ـ ولم تكن جراحًا لطيفة ولا هينة .. وهو يعرف الآن مايمكن لهذا الزئير أن يفعل .. أخيرًا وصل إلى ثغرة بين الأكواخ فاستند إلى شجرة متهالكة عتيقة وراح يلهث ..

من هنا كان يستطيع أن يرى ساحة القرية وبقايا النار المشتعلة هناك ..

الآن يرى الوحش .. يراه بوضوح تام وإن كان مرسومًا بالطريقة التى يعرفها البيض باسم (سيلويت) .. والسبب أن مركز الضوء الوحيد كان النار التى يدور الوحش حولها ، ولم يكن قد استكمل دورة كاملة بعد ..

هل هذا هذيان ؟ هل الأمر حقيقى ؟

إنه لم ير قط أسدًا بهذا الحجم الغريب .. لابد أن حجمه لايقل عن حجم ثور .. وكانت لبدته تشع

بالنيران حول عنقه كأنها مشتعلة هى ذاتها .. أضخم لبدة أسد رآها فى حياته ..

كان يعرف - وإن لم يتذكر لحظتها - أن لبدة الأسد تبلغ أطول صورة لها فى الأسر ، بينما تسقط نهائيًا عندما يواجه ظروفًا قاسية .. وهذا بدوره لايمكن تفسيره ..

ثم استدار الأسد مبتعدًا عن النار .. متجهًا نحو (علاء) بالذات ..

فى البداية كان بطيئًا واثقًا .. ثم غدت مشيته تقريبًا عدوًا صريحًا .. الآن انتهت المناورات والمجاملات .. صار الأمر واضحًا كالشمس .. إن الأسد رآه ويريده ..

لم ينتظر (علاء) ليفهم ، وإنما ألقى بالشعلة التى يحملها إلى الأرض ، ثم أنشب مخالبه فى الشجرة التى يقف جوارها وراح يتسلق وقلبه يكاد يتوقف رعبًا ..

هل تتسلق الأسود الأشجار ؟ ليس واثقًا .. لكن

صورة رآها قديمًا في مجلة أو فيلم سينمائي راحت تتردد في ذهنه .. رجل يقبع بين الغصون وينظر في رعب إلى أسد ينتظره على الأرض ..

تسلق الشجرة بسرعة .. تسلقها بسلاسة هو الذي لم يجرب تسلق أشجار كثيرة في حياته منذ تسلق شجرة التين الغليظة في فناء المدرسة الابتدائية ..

النار تشتعل عند قدميه ممسكة ببعض الأعشاب الجافة فتجعل الرؤية ممكنة إلى حد ما ..

الآن هو على ارتفاع خمسة أمتار على الأقل يتمسك بغصنين .. وينظر لأسفل ليرى مكان الأسد على الأرض فلا يجده .. هنا يدرك الحقيقة المفزعة :

ـ الأسود تتسلق الأشجار .. على الأقل هذا الأسد يفعل !

أراكم تتثاءبون وتفركون عيونًا حمراء ياسادة ، لهذا أوثر أن أتوقف عن السرد عند هذا الجزء ..

موعدنا غدًا عندما يجن الليل كى أحكى لكم كيف حاول الطبيب الشاب الهرب من الأسد غريب الأطوار ..

* * *



الليلة الرابعة

مرحبًا بكم ..

حين فتش (علاء) عن الأسد بدقة راعه أنه على بعد ثلاثة أمتار منه ، وأنه يتسلق الجانب الآخر منْ الشجرة وهو يصدر ذلك الزئير الهادئ الخفيض ..

ماذا يفعل ؟

لو وثب إلى الأرض فلسوف يهشم عظامه ، ولن يتأخر الأسد فى الوثب عليه ..

ماذا يحدث ؟ كيف النجاة من هذا الكابوس ؟

هنا سمع (علاء) صراخًا وحشيًا يتردد :

ـ« واراى ! واراى ! »

لم يفهم ما يحدث لكن شيئًا ما فى الصوت راق له ، لأنه ليس صوت أسد على الأقل .. هناك بشر هنا .. صرخ

بأعلى صوته طالبًا الغوث ، لكن كان من الواضح أن أصحاب الصوت سمعوه وهم قادمون له ..

-«واراى ! واراى !»

فى اللحظة التالية سمع صوت ارتطام ، ورأى الأسد يركض مبتعدًا على الأرض ، ومن لامكان برزت مجموعة من الرجال يحملون مشاعل ورماحًا غاية فى الطول ، وهم يركضون بين الأعشاب الطويلة مطاردين الوحش ..

لقد نجوت ! وترجل الطبيب الشاب الذى صار لونه كلون أسنان زعيم قريتنا .. انحدر من الشجرة إلى الأرض وكفاه ينزفان بشدة من فرط ما جرحهما الاحتكاك ..

أخيرًا رفع رأسه واستطاع أن يرى منقذيه .. لقد بقى ثلاثة حوله بينما راح الآخرون يطاردون الأسد فى الأعشاب بحماسة لامثيل لها .. وهم لايكفون عن الصراخ :



فى اللحظة التالية سمع صوت ارتطام ، ورأى الأسد يركض مبتعدًا على الأرض ..

ـ « وارارى ! وارارى ! »

من النظرة الأولى عرف أنهم ليسوا من سكان القرية .. كانوا نحيلين إلى حد لا يصدق ، طوال القامة والعظام ، وكان الواحد منهم عاريًا إلا من قطعة جلد حول عورته .. بينما يحيط وجهه بلبدة أسد منتفشة توحى كأنها شعر رأسه .. وكانت ملامح وجوههم دقيقة جميلة كوجوه الفتيات ، ليست فيها غلظة الوجه الإفريقى الاستوائى عامة .. ولاحظ أن السنين الأماميتين فى الفك السفلى لكل منهم ناقصة .. إن هؤلاء القوم ينتزعونها بأنفسهم ..

لم يحتج إلى جهد كبير كى يتذكر هذه الملامح :

ـ « أنتم .. أنتم (ماساى) ؟ »

لم يكن قد رآهم من قبل لكنه يعرف جيدًا ملامحهم وكساءهم من الصور .. أشجع محاربين عرفتهم القارة السوداء فى تاريخها .. (الماساى) و (الزولو) لفظتان طالما جلبتا الإسهال إلى أمعاء أكثر من قائد بريطانى ..

تقدم منه أحدهم ـ وكلهم متشابهون على العموم ـ ورفع ذراعه اليمنى على استقامة كتفه ، وكفه مفتوحة لأعلى .. كأنما يشحذ منه مالاً .. ونحن نعرف طبعًا أن هذه علامة السلام عند هؤلاء القوم ..

ـ « أنا .. هم .. (ماساى) .. »

كان هذا ما قاله بلغة إنجليزية عسيرة جدًا ، وكان (علاء) قد فقد الكثير من لغته الإنجليزية هنا ، لأن الفرنسية هى لغة التفاهم الأساسية فى (سافارى) ، لهذا كان على استعداد لأن يفهم جيدًا .. من لا يتقن لغة أجنبية تمامًا ، يفهمها أكثر حين تستخدم أمامه بشكل ردىء .. بمعنى آخر : من لا يجيدون الإنجليزية يفهمون بعضهم تمامًا حين يتحدثون بالإنجليزية !

ـ « أنت .. هم .. حماية .. (ماساى) .. حماية »

وهذا معناه طبعًا أن طبيبنا الشاب فى حماية (الماساى) .. قال الفتى منبهرًا :

ـ « أنتم تتكلمون الإنجليزية ؟ »

- «ليس كثير إنجليزية .. بريطانيون هم يتكلمـون .. أنا فقط أتكلـم .. (ماسـاى) لا يتكلم .. أنـا (طـوالا) الشهم .. »

لنتفق من الآن على أن نكتفى بمعرفة أن لغـة (طوالا) الإنجليزية رديئـة .. لكنـى سأحكى خلاصة ما قيل وإلا غدت القصة مستحيلة الفهم ..

مد (علاء) يده ليصافحه فتراجع المحارب للوراء كأنه لا يريد ذلك .. قال الشـاب وهو يرفع عنقه لأعلى كى يستطيع التفاهم مع هذا العملاق :

- « أنا (علاء) .. طبيب .. »

هز الرجل رأسه كأنما هذه معلومـة لا قيمـة لها بالنسبة له - وهى كذلك فعلاً - ثم نظـر إلـى بعيد حيث توارى رجاله وغرس رمحه فى الأرض ..

سأله (علاء) محاولاً ألا يضايقه أكثر من اللازم :

- « هرب رجال القرية .. لا بد أنهم شعروا بقدوم الأسد .. »

قال (طوالا) شارد الذهن وهو يرمق الأفق :

ـ « هم شعروا بقدوم الأسد .. »

بعد قليل تعالى صوت الصراخ من الأحراش التى توارى فيها القوم من دقائق .. صرخات رفيعة متقطعة كصرخات الهنود الحمر فى السينما .. وظهرت القامات الفارعة لهم وهم يركضون عائدين ..

قال (طوالا) :

ـ « لم يظفروا به .. توارى بين الأعشاب .. إن العثور عليه الآن مستحيل .. »

ـ « وخطر كذلك .. »

أخيرًا جاء الرجال ، فوقفوا صفًا كما فى الجيش .. كان عددهم نحو عشرين ، وقد اصطفوا متجاورين ، وراحوا يشبون على أطراف أصابع أقدامهم كأنما يريدون أن يزدادوا طولاً ، ثم راحوا يتواثبون إلى الهواء بانتظام .. حركة رتيبة متواصلة تجعل شيئًا من العنف يتسرب إلى نفسك .. وكانوا يصدرون صوتًا

غريبًا من أفواههم ناجمًا عن نفخ هـواء الزفير بين الخدين .. دعك من أن طول الواحد منهم متران تقريبًا .. ثم يشب على أطراف أصـــابعه فيزداد نحـو عشرين سنتيمترًا ، وتتكفل الوثبة بجعـل ارتفـاع قامتـه ثلاثـة أمتار !

أخيرًا بدأ إيقاع الوثب يهبط ومعه قل معدل النفـخ لحسن الحظ .. كان كل هذا مرعبًـا لكـن (عـلاء) لـم يستطع أن ينسى أن هؤلاء القـوم أنقذوا حياته وهـم لهذا جديرون بالإعجاب ..

انتزع (طـوالا) رمحـــه مـن الأرض وقال للرجـال شيئًا ما ، ثم اتجه معهم مبتعدين ..

صاح (علاء) فى هلع :

ـ « أنتم لن تتركونى هنا ؟ »

قال (طوالا) وهو يواصل المشى لاحقًا برفاقه :

ـ « يمكنك البقاء هنا أو اللحاق بنا .. لا فارق .. »

ـ « وأين ذهب سكان القرية ؟ »

ـ « هم يملكون الإجابة ولا نملكها نحن .. »

وهكذا وجد (علاء) نفسه يترك كل شىء ، ويسرع الهرولة للحاق بهؤلاء القوم غريبى الأطوار .. إن خطواتهم سريعة جدًا بحكم طول عظامهم ولو تأخرت خمس دقائق فلن تجد لهم أثرًا ..

الظلام دامس فلا ضوء إلا ما يوجد فى أيديهم من مشاعل .. والغريب أنهم لم ينظروا للوراء قط كى يروا إن كان يتبعهم أم لا .. ليسوا بارعين جدًا فيما يتعلق بالإتيكيت كما هو واضح ..

وحيد فى قرية من قرى (الكيكويو) قرب حدود (تنزانيا) ، تتبع مجموعة من محاربى (الماساى) هم الضمان الوحيد لسلامتك من أسد غريب الأطوار ! ترى ماذا ستقولين لو عرفت هذا يا أمى ؟ كنت على حق حين قلت إننى سأكون فى خطر داهم طيلة الوقت .. لكن هذا لم يطف بخاطرك بالتأكيد !

★ ★ ★

كم مشوا بين أعشاب السافانا العالية ؟

لايدرى (علاء) لأنه لم يسجل بالضبط متى بدأ التحرك ، لكنه عرف على الأقل أن الساعة الثالثة الآن .. إن عينيه ـ اللتين اعتادتا الظلام ـ صارتا تريان الآن (ماونت كاميرون) الرهيب .. وبدا كرفيق يمشى معهم طيلة الطريق ..

فى النهاية كانت هناك أكواخ معدودة .. خمسة أكواخ صغيرة لايمكن أن تصلح إلا لنوم هؤلاء العمالقة .. وكانت هناك ثلاث بقرات وراء سياج بدائى صغير .. ومن الغريب أنه لم تكن هناك حراسة من أى نوع ، كأن الوحوش لاتجسر على مهاجمة أبقار تخص (الماساى) ..

هذه قرية صغيرة جدًا فقيرة جدًا كما يبدو ..

وكان (علاء) ـ الذى قرأ كثيرًا عن القبائل الإفريقية ـ يعرف أن عدد (الماساى) حاليًا لايتجاوز الربع مليون ، كلهم يقيم فى جنوب (كينيا) .. أى فى هذه

المنطقة بالضبط .. لقد قابل (الماساى) البريطانيين للمرة الأولى عام 1840 .. ويمكننا بسهولة أن نعرف إن البريطانيين لم يكونوا يمزحون ، وما فعلوه مع (الماساى) كان إبادة عرقية بالمعنى الحرفى للكلمة .. ماذا بوسع الشجاعة والرماح أن تفعل أمام البنادق والمدافع ؟

ولم تكن إبادة (الماساى) قاصرة على الرصاص والمدافع ، بل تكفل وباء الجدرى باستكمال المعركة .. لأن هؤلاء القوم أبناء الطبيعة لم يكونوا يملكون أية مناعة طبيعية ضد هذه الأمراض .. نفس الطريقة التى قضى بها المستعمر على جل سكان (هاواى) الذى كانت عطسة واحدة فى وجوههم تكفى لإصابتهم بالجذام والدرن والالتهاب الرئوى .. لقد وزع الاستعمار الرصاص والنار بسخاء قبل أن يسمع العالم عن شىء اسمه الحرب البيولوجية .. والحرب البيولوجية مصطلح لا تعرفونه ياسادة ، لكنى أنا (مزى) أعرف شيئًا عن كل شىء ..

هناك وقف المخاربون ، ومن جديد راحوا يواصلون طريقهم فى الوثب إلى أعلى .. مع الصياح .. الكثير منه ..

هؤلاء القوم لايتعبون أبدًا .. كأنما يبغون التحليق بين النجوم بشكل ما ، وكأن الإصرار كاف لهذا ..

بعد هذا جاءوا بإحدى بقراتهم ..

هنا يبدأ الجزء القذر من قصتى .. لقد قام رجلان بإرقادها على الأرض .. وحسب (علاء) أنهم فى سبيلهم لذبحها إكرامًا له ـ وإن لم يستطع تصديق كل هذا الكرم ـ لكنهما تعاونا على تكبيل حركتها ، ثم أخرج أحدهما مدية ، وغرسها فى أوردة العنق غرسًا غير عميق .. بدأ الدم يسيل فهرع أحد الرجال يجمعه فى إناء فخارى ..

بعد هذا قاموا بسد الجرح بالأعشاب وضمدوه وتركوا البقرة تنهض ..

كان أحدهم قد حلب إحدى البقرات الأخرى ، وجاء بوعاء فخارى ملىء باللبن ، وبدقة الساقى فى أحد البارات البريطانية أو خبرة العطار ، راح الرجال يمزجون الدم باللبن ..

وارتفع الوعاء الرهيب الذى يحوى السائلين الأبيض والأحمر معًا فى مزيج لا يحدث فى أى مكان من الأرض .. ورفعه أول الرجال إلى شفتيه وجرع منه .. تلمظ ولعق شفتيه كأنما يتمنى ألا تنتهى هذه النشوة .. ثم ناوله لجاره الذى جرع جرعة مماثلة ..

وصل الدور إلى (طوالا) الذى شرب وتجشأ ثم ـ بفم ملوث بالسائلين ـ ناول الوعاء إلى (علاء) !!

نظر (علاء) له فى تقزز ونظر إلى الوعاء .. لو كان ما فى الوعاء لبنًا خالصًا فهو لن يشربه غير مغلىّ ، ولن يكون فمه الأخير بعد كل هذه الأفواه .. فما بالك لو كان الموجود ليس لبنًا خالصًا ؟!

توسلت عيناه إلى (طوالا) كى يرحمه من هذا ، لكن المحارب نظر له فى إصرار لا يخلو من عدائية ..

* * *

لكن (الكاسافا) هنا فى قرى (الباتتو) تلعب دور القهوة فى الجزيرة العربية .. شربها من التقاليد

ورفضها إهانة .. لابد من أن تشرب قدحًا واحدًا على الأقل من القهوة ، وتدس فى فمك حفنة من الكاسافا الشبيهة بالبطاطا الممهوكة ..

* * *

رفع (علاء) الدن إلى شفتيه بيد ترتجف ، ولامس حافته وهو يكتم أنفاسه .. تظاهر بأنه يشرب لكنه لم يفعل .. وحين خفض الدن عن فيه هلل المحاربون حماسة وعادوا يتواثبون فى الهواء ..

من الغريب أن عادة التهام اللحم النيئ أو شرب الدم توحى بشدة البأس عند البدائيين فى كل مكان .. وحتى فى مصر التى جاء منها (علاء) يعتقد (المطاريد) أن التهام كبد الذئب يمنح القوة وشدة المراس .. أما فى (إسبرطة) القديمة فكانت حفلات شرب الدم والخل شيئًا معروفًا ومحبوبًا ..

نحن نعرف أن غذاء (الماساى) يتكون جله من اللبن والدم .. ونعرف أنهم لايأكلون اللحم لأنهم

يحترمون الأبقار لكنهم لايعبدونها .. وهم يحصلون على الدم من البقرات الحيات بهذه الطريقة كما تفعل الوطاويط مصاصة الدماء ..

أراكم تتثاءبون وتفركون عيونًا حمراء يا سادة ، لهذا أوثر أن أتوقف عن السرد عند هذا الجزء ..

موعدنا غدًا عندما يجن الليل كى أحكى لكم ماحدث لبطلنا الشاب مع رجال (الماساى) ..

* * *



الليلة الخامسة

مرحبًا بكم ..

الليلة أشعر ببرد زائد فى عظامى النخرة ، لهذا أوصيكم بأن تزيدوا اشتعال النار ، وأن تضعوا جلد الثور على كتفى .. لا أستطيع أن أطلب منكم أن تعفونى من السرد هذه الليلة ، لأن هذا ليس من حقى .. أنا جهاز (راديو) حى تملكه القبيلة ولا يستطيع أن يصمت أبدًا .. ولهذا كما قلت تدللوننى وتلبون لى كل ما أطلب ..

سأواصل القصة التى بدأتها من خمس ليال ..

كنت أقول إن (علاء) جلس وسط محاربى (الماساى) الذين أشعلوا نارًا وجلسوا حولها .. من الغريب أنهم لم يكونوا كثيرى الكلام ، وما كان ليفهم كلامهم لو فعلوا لأنه بلغة (الما) وهى نفس لغة القرية التى كان فيها ..

مال يسأل (طوالا) الوحيد فيهم الذى يتكلم بعض الإنجليزية :

ـ « هل أنت الزعيم ؟ »

أشار (طوالا) إلى اتجاه الأكواخ ، وقال :

ـ « لا .. هذا هو الزعيم وهو حاصل على لقب (موماسا) .. »

ـ « (موماسا) ؟ هل هذا مهم ؟ »

ـ « معناه أنه استطاع أن يقتل أسدًا بيديه العاريتين دون سلاح ! »

أسد بيدين عاريتين ؟ كيف ومتى ؟ لكن هذه هى الحقيقة ..

من جديد عاد (علاء) يسأل غير قادر على قهر عادة الفضول التى يبدو أنها مستهجنة هنا :

ـ « أين الباقون ؟ »

وكان يتساءل عن وجود أطفال أو نساء فى هذا المجتمع .. من الواضح أن هذه قرية فأين نساؤها ؟

لم يرد (طوالا) وواصل النظر إلى النـار فـى صلابة ..

ـ « هل أنتم جميعًا محاربون ؟ »

ـ « (الماساى) ثلاث طبقات : الأطفال .. المحاربون .. الشيوخ .. على كل طفل أن يصير من المحاربين (إلموراتى) حتى سن الثلاثين .. بعد هذا يحق لـه أن يتزوج ويرعى الماشية .. قبل هذا يعيش مع أمـه وإخوته .. »

ـ « هذا يشبه نظام التجنيد الإجبارى عندنا .. »

ثم إن (طوالا) استدار إلى رفاقه ودارت محادثـة طويلة بلغة (الما) .. لم يفهم (علاء) طبعًا حرفًا مما يقال ، لكن كان من الواضح أن (طوالا) يقنـع رفاقه بشىء عسير أن يقتنعوا بـه .. وفى المحـاجر التمعت العيون شديدة البياض فى شك ..

أخيرًا التفت إلى (علاء) وسأله :

ـ « قلت إنك طبيب ؟ »

ـ « حسبت هذا مفهومًا .. »

ـ « تعال معى لترى (موماسا) الشهم .. »

لماذا كانوا مترددين إذن ؟ لأن الفارق عند هؤلاء القوم بين الساحر والطبيب شبه معدوم .. إن (الماساى) عامة لا يؤمنون بالسحر ، ولا يملك الساحر تلك السلطة وذاك النفوذ المعروفين عند القبائل الأخرى .. إنهم يؤمنون بإله واحد قادر يسمونه (إنجاى) .. وهم يوسعون من تعريفه إلى حد أن كل ما لا يفهمونه فى الطبيعة ، وكل ظاهرة كونية غامضة يسمونها (إنجاى) بدورها .. أما رجل الدين لدى (الماساى) فمهمته محددة جدًا هى صنع الدواء واستنزال المطر .. معنى هذا أنهم لا يجدون للطبيب نفعًا من أى نوع .. هم فقط يجربون ..

والحقيقة أن طبيبنا الذى لم يكن يملك أدوات فحص أو علاج ، ولم يكن على صلة الآن بمستشفاه الضخم ، كان أميل إلى الاقتناع برأى من يرون أنه لا جدوى منه ..

وتناول (طوالا) مشعلاً ، ونهض .. فنهض معه (علاء) .. الحقيقة أن فضوله كان مركبًا .. من المثير أن تعرف ما يريده هذا الرجل ، والأكثر إثارة أن ترى هذا الـ (موماسا) الشهم الذى قتل أسدًا بيديه العاريتين .. فلتقطع ذراعى إن كان شيئًا أقل حجمًا من الثور ..

الكوخ قذر .. ماذا كنت تتوقع ؟ إنه من أعواد البامبو التى تم لصقها بروث الأبقار ، وروث الأبقار هنا مهم لأنه المصدر الوحيد للمواد اللاصقة ولوازم البناء .. فى الداخل الظلام ، ومريض راقد على الأرض العارية فى حالة بالغة من الإعياء .. يمكنك أن ترى هذا فى الضوء الخافت دون جهد كبير ..

دنا الطبيب منه على ركبتيه ، وتوقع أنه سيسأل المريض بضعة أسئلة لكنه كان مخطئًا ..

لم تكن ثمة حاجة لأية أسئلة ..

الجسد واضح القوة لكنها قوة أبلاها المرض

سريعًا .. كان عنقه محاطًا بقلادة سميكة من ريش النعام ، وفى أذنيه قرطان عملاقان من كتل الخشب .. واضح تمامًا أن الرجل يحتضر إن لم يكن قد فعل ذلك فعلاً .. العينان الحمراوان المحتقنتان ككأسين مليئتين بالدم .. والطفح المنتظم المنتشر على الجلد .. طفح على الوجه والذراعين .. طفح على أعلى الصدر .. الحق أن الرجل كان جديرًا بأن يحتل مكانه فى ملفات صور الرعب أو ملفات درنات البطاطس .. لو كان هذا الرجل قد قتل أسدًا يومًا ما بيديه العاريتين ، فمن الواضح أنه عاجز عن ذلك الآن ..

لم تكن ثمة حاجة لأية أسئلة ..

لقد نظر (علاء) إلى (طوالا) فى حيرة ، ثم - بردّ فعل تلقائى - وضع منديله على أنفه وسأله :

- « منذ متى هو محموم ؟ »

- « ستة أيام .. »

- « وهذا الذى على جلده ؟ »

ـ « يومين ! »

ـ « طفح اليوم الرابع ! رباه ! »

لقد انتهت عملية التشخيص .. إن هذا هو الجدرى .. أقطع الأمراض الفيروسية وأشنعها ..

إن المرض ينتقل بالتنفس .. فلابد أن هواء الكوخ نفسه تحول إلى جدرى فى صورة غازية .. لم يعد فى الهواء نتروجين بل فيروس يشكل أربعة أخماسه ..

ولكن كيف ؟ كيف ؟

أراكم تتثاءبون وتفركون عيونًا حمراء يا سادة ، لهذا أوثر أن أتوقف عن السرد عند هذا الجزء ..

موعدنا غدًا عندما يجن الليل كى أحكى لكم ما حدث لبطلنا الشاب مع رجال (الماساى) ..

★ ★ ★

الليلة السادسة

مرحبًا بكم ..

كان طبيبنا الشاب يعرف أن الجدرى كان أهم أعداء (الماساى) وقد أبادهم كما لم يفعل الرصاص ولا المدافع .. من الوارد تمامًا أن تجد حالة جدرى عند (الماساى) ..

لكن المشكلة هى أن الجدرى اختفى من على ظهر البسيطة منذ عام 1983 وكانت آخر حالة فى الصومال .. بعدها أعلنت منظمة الصحة العالمية أن المرض انقرض وأن بوسع الناس أن يكفوا عن تعاطى لقاحه ..

هكذا لم يعد الناس يطعمون ضد الجدرى .. فى الأجيال السابقة كان لقاح الجدرى يعطى على شكل قطرات توضع على العضد ، ثم يتم خدش الجلد عدة

خدوش كى يتسرب اللقاح إلى أوعية اللمف .. وكل من ولد قبل عام 1983 يحمل أعلى عضده تلك الندبة المميزة ..

اليوم لم يعد هناك من يحضر اللقاح أو يعطيه .. وبالتالى أكثر من نصف سكان الكرة الأرضية لا يملكون مناعة ضد هذا المرض ، ولو ظهر ثانية فلن يكون ضحاياه بالمئات بل بالملايين ..

يعرف (علاء) أيضًا أن الحكومة الأمريكية تحتفظ ـ على سبيل الذكرى ـ ببقايا فيروس الجدرى فى معامل CDC فى أطلنطا .. ولو أبادت هذه البقايا لاختفى الجدرى تمامًا من على وجه البسيطة ، وهو ما يثير قلق الناس دومًا عما قد يحدث لو تسربت هذه البقايا أو سرقت ، وهو ما سيحدث يومًا ما ، طبائع الأمور تقول إن هذا سيحدث يومًا ما .. يومها ـ بعد أن يموت عشرة ملايين ـ ستعلن الحكومة الأمريكية أن قرار الاحتفاظ بفيروس الجدرى كان قرارًا غير مدروس وغير موفق !

الآن (علاء) يجد نفسه أمام مرض الجدرى بالذات .. كيف ومتى وأين ؟ لكم تمنى لو كان حمارًا وكان تشخيصه خاطئًا .. لكنه لم يبلغ بعد هذه المرحلة من الحكمة التى يصلها العلماء مثلى فى نهاية حياتهم : أن يعرفوا أنهم حمير لا تفقه شيئًا .. مرض الجدرى موصوف بدقة فى الكتب الطبية ، وخاصة الفوارق المهمة بينه وبين مرض آخر مسالم يصيب الأطفال جميعًا هو (الجديرى) .. وكان (علاء) يعرف جيدًا أن هذا ليس (الجديرى) ..

لقد تغيرت الأمور ..

حياة (علاء) التى كان الأسد يتهددها منذ قليل ، صارت مهددة بالجدرى الآن .. ليس هو فحسب .. بل العالم كله مهدد ..

غادر الكوخ مسرعًا ومعه (طوالا) ، وفى الخارج أبعد المنديل عن أنفه وقال :

ـ « هذا مرض خطير .. كل من هنا مهدد بالموت .. »

ـ « (المورانى) لا يخاف الموت .. »



غادر الكوخ مسرعًا ومعه (طوالا) ، وفى الخارج أبعد المنديل عن أنفه ..

ـ « لكن العالم كله يخافه .. لا بد من نقل هذا الرجل إلى العزل وإبلاغ السلطات .. »

ـ « لن يذهب (موماسا) إلى أى مكان .. »

ظل (علاء) صامتًا وقد أدرك من خشونة الرجل وحدته أن الأمر لا مزاح فيه .. إنه لا يثق أبدًا بالعالم الغربى ، ومعه الحق فى ذلك .. لكن هذا يزيد الأمور تعقيدًا .. ليكن .. يمكنك مهادنة هؤلاء الفتية الشجعان حتى تعود إلى (سافارى) ، بعدها يمكنك أن تملأ الدنيا صراخًا ، ولربما يضطرون إلى قطع لسانك كى تخرس قليلاً ..

نظر إلى عقارب ساعته المضيئة فوجد أنها الرابعة صباحًا .. ما بال هذا الليلة الغريبة لا تنتهى ؟ يخيل إليه أنه ودع الهليكوبتر منذ ثلاثة أشهر ، وإذا بعشر ساعات لم تنقض بعد ..

مشكلة الليالى السوداء أنها لا تمر بسرعة ..

اتجه إلى النار وجلس جوارها شارد الذهن .. هل

لمس واحدًا منهم ؟ ماذا عن دن اللبن والدم الذى لامسه بشفتيه ؟؟ لقد ارتكب مليون غلطة قاتلة منذ قابل هؤلاء القوم ، ولن ينجو إلا بمعجزة ..

لقد تلقى لقاح الجدرى صغيرًا ، فهل ما زال يؤدى عمله ؟

أراكم تتثاءبون وتفركون عيونًا حمراء يا سادة ، لهذا أوثر أن أتوقف عن السرد عند هذا الجزء ..

موعدنا غدًا عندما يجن الليل كى أحكى لكم المزيد عن (الماساى) ..

* * *



الليلة السابعة

مرحبًا بكم ..

لقد جاء (الماساى) مهاجرين إلى (كينيا) فى القرن السابع عشر .. من منطقة شمال بحيرة (توركانا) .. وهم لهذا يحملون ملامح نيلية رقيقة تذكرك بملامح الفراعنة فى مصر .. ولهم بشرة نحاسية اللون تختلف كل الاختلاف عن بشرة (البانتو) السوداء الغليظة .. ويشعر (الماساى) بالتميز والتفوق العرقى .. وبأنهم سلالة أفضل من باقى السلالات .. وهذا يذكرنا بفرسان (الساموراى) فى اليابان الذين كان يكفيك أن تدوس على ظل أحدهم على الأرض ، كى تعتبر نفسك ميتًا ..

يعيش ذكر (الماساى) حياته كمحارب فى زهد وتقشف ؛ فهو لايدخن ولا يشرب الخمر ولا يتزوج

حتى يبلغ سن الثلاثين ، عندها تنتهى خدمته العسكرية الإجبارية ..

فى هذه السن يكف عن البحث عن برهان لرجولته ويبدأ البحث عن بيت .. وعن ثروة .. وثروة (الماساى) هى الماشية ولا شىء سواها .. وهو يميز قطعانه بعلامات وشم خاصة ، وشقوق يحدثها فى الأذنين ..

وتتكون قطعان الماشية فى الغالب من قطعان الغير ، الذين يسطو على قراهم .. إنه محارب شرس لايشق له غبار ، وهو مسلح بالرماح والدروع وسيف طويل بتار .. ويفخر بأنه لايبقى من غاراته أحياء .. حتى النساء يتم قتلهن بتهشيم الرأس فى احتفال ليلى كبير ..

كانت هذه العادات هى سبب جعل كلمة (ماساى) مرادفة للموت فى شرق إفريقيا كله ..

إن الماشية هى مصدر حياة الماساى فهى تمده بالدم واللبن ، لكنه لايمارس الصيد تعففا منه

واحتقارًا إلا حين يتعلق الأمر بحيوان مفترس ، وللأسد أهمية كبرى هنا لأنه دليل الشجاعة والرجولة ، كما أن الفتى يحرص على أن يفوز بلبدته وجلده ليتخذهما كساءً له ولرأسه .. ولك أن تتصور هؤلاء المحاربين النحيلين فارعى القامة وقد ارتدى كل منهم لبدة سبع على رأسه ، وهو يركض فى حقول السافانا ملوحًا برمحه ، كأنه أسد آدمى مخيف ..

لقد كان مشهدًا يجمد الدماء فى العروق ، ومن حسن حظكم أنكم لم تروه .. أنا رأيته كثيرًا !

بالإضافة للبدة الأسد يحرص محارب (الماساى) على انتزاع السنين الأماميتين من فكه الأسفل ، ويقال إن هذا لمنع داء (الكزاز) ويقال إنها لتمييز جماجمهم حتى يعاملوها بالاحترام اللازم .. فإذا قابل محارب (الماساى) جمجمة زميل له ، كور بعض العشب وبصق فيه ثم سد به تجاويف الجمجمة علامة على الاحترام ..

كما يعلق محارب (الماساى) فى أذنه أثقالاً هائلة

الحجم لا يمكن أن تصدقها ما لم تراها .. كما يحيطون الكاحلين بالأجراس كى تنذر الناس بقدومهم .. وأحيانًا يلفون أذناب القردة حول سيقانهم ..

كان (الماساى) من البداية مشكلة للمستعمر البريطانى ، فهم قوم شديدو الكبرياء يصعب استئناسهم .. وعلى حين كان من السهل اقناع (الكيكويو) بسلطة البريطانى ، ظل (الماساى) يقاومون .. وكانت فى هذا بذرة انقراضهم ..

إن النساء يسخرن من محارب (الماساى) الذى لم يخضب حربته بعد بدم العدو .. ولحظة القتل الأولى مهمة جدًا للشاب ..

أما عن احتفالات الرجولة التى يعد بها الأطفال الذين بلغوا كى يصيروا محاربين ، فهى حفلات دموية يصعب وصفها .. إذ يحضرون للفتية ثورًا هائجًا ثملاً ظلوا يسقونه الخمر يومًا كاملاً ، ويحاول الفتية أن يتمكنوا من الثور الذى زادته الخمر هياجًا .. فى

النهاية يتمكن الفتية من إيقاع الثور أرضًا .. عندها يسلخونه ويقطعون جلده إلى سيور يتزين بها كل واحد منهم حول كاحليه ورسغيه ..

واليوم انقرض أكثر (الماساى) .. إنهم ـ كالهنود الحمر ـ يعيشون معزولين فى جنوب (كينيا) وشمال (تنزانيا) فى مجتمعات رعوية ، ولم تعد الحروب إلا ذكرى يفخرون بها من وقت لآخر ..

* * *

ظل طبيبنا الشاب جالسًا أمام النار يعد أنفاسه .. إن القوم صامتون كأنما على رءوسهم الطير ، وقد كفوا حتى عن الصياح والوثب فى الفضاء .. فى النهاية مال على (طوالا) وهمس فى أذنه :

ـ « هل هذا أول المرضى ؟ »

قال (طوالا) بطريقته المقتضبة التى لا ترغب فى الكلام أكثر :

ـ « لا .. سبقه محاربون إلى اللحاق بـ (إنجاى) .. »

ونهض واقتبس شعلة من النار فنهض (علاء) وراءه .. مشى الرجل بقامته الفارعة بين الأعشاب حتى بلغ موضعًا تكاثرت فيه الأشجار ، ورفع المشعل لأعلى كى يتيح لـ (علاء) رؤية أشمل لما هناك .. كانت هناك أسِرّة معلقة بين الأشجار على ارتفاع نحو خمسة أمتار .. أسِرّة من الأعواد المجدولة .. وبرغم الارتفاع كان بوسعك أن ترى أذرعًا لم يعد باقيًا فيها إلا العظام تتدلى من فوق هذه الأسرة .. لقد كانت مقابر .. وعددها خمسًا ..

مشهد رهيب بحق ، لأن وضع الأسرة المعلقة يشعرك بأن هؤلاء نائمون ، يمكن أن ينهضوا فى أية لحظة ..

ـ « (الماساى) لا يدفنون موتاهم فى الأرض أبدًا حتى لا يدنسوها .. إنما تترك هكذا للطيور الجارحة .. »

كان (علاء) يعرف هذه المعلومة على الأقل من قبل ..

خمسة ماتوا وواحد على وشك ! هـذا جميل ! إن الوباء نشط ويؤدى عمله جيدًا ..

عاد الرجلان المختلفـان أشد ما يكون الاختـلاف إلى اختراق السافانا عائدين إلى مجمع الرجال حول النار ، ولاحظ (علاء) أن (طوالا) لم ينظر للوراء لحظة ليتأكد إن كان يتبعه أم لا .. هذه هى عادتهم كما قلنا ..

هنا اعتمل القرار فى ذهنه .. وهو قرار أحمق أهوج لكنه لم يجد خيرًا منه فى الوقت الحالى .. سيفر !

كان يتوجس خيفة من هؤلاء القوم .. إنهم محاربون شرسون لا تمثل الحياة الفردية أدنى معنى لديهم .. هم يرفضون أن يعرف أحد بالوباء الذى يفتك بهم ، وهو طبيب وقد أعلن عن رغبته فى إطلاع العالم على حقيقة ما يحدث ..

الآن هو أسيرهم .. صحيح أن أحدًا لم يقل هذا لكنه واضح ومفهوم .. لا أحد يعرف أنه هنا معهم .. بل هو لا يعرف أين هو .. لو أنهم أطاروا رقبته

بسيوفهم ـ وهذا لن يستغرق وقتًا ـ وتركه حيث هو ، فلن يبحث عنه أحد ولن يجده أحد ..

ثم ماذا عن العدوى ؟ ماذا عن خطر البقاء مع قوم يفتك بهم الجدرى ؟

إن البقاء معهم معناه الموت مائة فى المائة بينما الفرار معناه احتمال النجاة ..

لِمَ لا ؟ إفريقيا لم تعد كما كانت ولم يعد الموت نصيب كل من يمشى فى الغابة ..

إن الفجر دان ، ولن يلبث أن يتبين قرية ما وفلاحين عاديين مسالمين من (الكيكويو) يدلونه على مكان قرية (ناكومو) .. من يدرى ؟ لعله على حدود (تنزانيا) ولربما يقابل دورية ما أو بعض الجنود ..

الخلاصة أن الفرار بدا له الأمل الوحيد الباقى ..

وهكذا تلكأ قليلاً .. تلكأ أكثر ..

كانت قدما العملاق تحملانه مبتعدتين بسرعة يصعب

وصفها ، وكان هذا كافيًا .. يكفى أن تتأخر قليلاً كى تصير وحدك .. فى النهاية صار العملاق على بعد عشرة أمتار ، فاستدار (علاء) وأطلق ساقيه للريح ..

لم تعد الظلمة قاسية كما كانت ..

لو أردنا الدقة لقلنا إن اللون الأسود صار رماديًا .. يبدو أن الليل بدأ يمل اللعبة ويبغى الرحيل ..

راح (علاء) يركض دون أن ينظر للوراء .. فقط كان يرى ـ كأنه القدر ـ (ماونت كينيا) يمتد من بعيد كأنما يركض معه ، مسربلاً بالسواد والغموض ..

هناك أشجار (واتل) فى كل مكان من حوله ، بأوراقها المثقبة القاتمة وزهرها العطر الذى استعمل للصباغة عقودًا من الزمن فى (كينيا) .. والأعشاب العالية تصل إلى ركبتيه تقريبًا ، وهو أمر لا بأس به لأن (السافانا) قد تصل لارتفاع عنق الرجل البالغ أحيانًا وتسمح بأن تتوارى فيها غواصة أو كتيبة جيش دعك من أسر السباع الجائعة ..

يواصل (علاء) الركض ويدعو اللّـه .. يا رب .. دع النهار يطلع على وأنا محتفظ بكامل أطرافى !

كان الأمر ..

لكنى أراكم تتثاءبون وتفركون عيونًا حمراء ياسادة ، لهذا أوثر أن أتوقف عن السرد عند هذا الجزء ..

موعدنا غدًا عندما يجن الليل كى أحكى لكم المزيد عن فرار (علاء) وحيدًا وسط الأدغال ..

* * *



الليلة الثامنة

مرحبًا بكم ..

لم يشعر (علاء) قط بأنه هش معرض للخطر مثلما كان فى هذه اللحظات .. كأنه عار تمامًا بينما تمطر السماء نارًا على رأسه .. تخيل الإنسان بطىء الحركة معدوم المخالب والأنياب وحده وسط مملكة الوحوش هذه .. الوحوش والبشر الذين يشبهون الوحوش .. لو كان معه سلاح نارى أو أبيض لشعر ببعض الاطمئنان ..

والحقيقة هى أنه بعد ما جرى عشر دقائق بدأ يدرك أنه أخطأ الحساب .. مع (الماساى) كان آمنًا من الوحوش ، ويمكن للإقناع الودى أن يلعب دورًا ما .. هؤلاء الفتية أنقذوا حياته ولم يبدوا عدوانيين على الإطلاق ، بل إنهم قدموا له الطعام .. صحيح أنه طعام مقزز لكن هذا ليس ذنبهم ..

بمناسبة الطعام .. يجب أن نذكر أنه لم يلتهم شيئًا منذ يوم تقريبًا .. ليته ملأ بطنه بالكاسافا المقززة التى قدموها له فى القرية .. لكنه البطر .. لكنه التعالى .. لقد ذاقها مجاملاً فقط ثم تخلص من الباقى .. أما الآن فهو يعرف أن معدته تتلوى طلبًا للزاد ، وخلاياه تبحث عن (الأدينوسين ثلاثى الفوسفات) كى تظفر ببعض الدفء .. لكن هيهات ..

على الأقل يمكنه أن يفهم توحش الأسد ويبرره .. ألم يقل (ماركس) يومًا إن تاريخ البشرية هو تاريخ البحث عن الطعام ؟ هل كان (ماركس) تائهًا فى (السافانا) حين قالها ؟

الآن يبدو أن وقت تصحيح الخطأ قد جاء .. عليه أن يرجع القهقرى ليلحق بـ (طوالا) الشهم ..

لكن هنا تتضح حقيقة بسيطة : من المستحيل أن ترجع إلى نفس المكان فى (السافانا) .. أنت تعتقد أن الوراء هو ما يوجد خلف ظهرك .. لكنك فى الحقيقة غيرت اتجاهك أكثر من مرة وأنت تجرى ، بحيث صار هناك ألف وراء ..

بعد قليل أدرك (علاء) أنه ضل الطريق وأن الذعر يتسرب إلى نفسه ، وكان يتمنى ألا يحدث هذا ..

راح يمشى باحثًا عن فرجة معينة بين الأعشاب الكثيفة تتيح له أن يجلس .. ربما ينام ..

لن يلبث الصباح أن يأتى .. وعندها ..

ثم رأى الكوخ ورأى الضوء وقف الشعر فى لحيته ومؤخرة رأسه ..

* * *

وحيدًا وسط الأدغال المظلمة يقف هذا الكوخ الخشبى ، حيث لاتتوقع أن ترى أكواخًا على الإطلاق .. وفى نافذته المهشمة ترى ضوءًا راقصًا كأنه انعكاس شمعة ..

تردد (علاء) قليلاً .. هل يقرع الباب فيدخل ؟ الحقيقة أن الكوخ كان يحمل كل ما ينفر المرء منه ، وكان يذكرك بكوخ الذئب فى القصص التى يحكونها للأطفال كى يموتوا رعبًا ..

هل يدخل ؟ فى النهاية تغلبت غريزة البقاء (أم لعلها غريزة الفناء ؟) على الفتى فقرع الباب ..

ـ « من أنت ؟ »

جاءه الصوت من الداخل بإنجليزية راقية لا تصدر إلا عن شفتين بريطانيتين .. وسمع المزلاج ينزاح ثم طالعه وجه قذر .. وجه أوروبى لم يبق فيه جزء إلا ونما فيه شعر كثيف .. وأدرك (علاء) أن الرجل يصوب بندقية عتيقة إلى قلبه ..

ـ « ولكنك لست من الأهالى ؟ »

هذه جاءت من الرجلين معًا فى اللحظة ذاتها .. ثم تنحى الرجل فى شىء من الترحاب وسمح لـ (علاء) بالدخول .. كان الكوخ قذرًا ورائحته أقذر .. وكان خاليًا من الأثاث إلا من فراش مرتجل صنع من بعض الصناديق الفارغة ، ومنضدة مصنوعة بنفس الطريقة .. على المنضدة زجاجة شراب امتلأت إلى نصفها وكوب وأداة تزييت .. يبدو أن الرجل كان عاكفًا على تزييت بندقيته حين دق (علاء) الباب ..

ـ « محسوبك (آرثر ماكندو) .. صياد إسكتلندى .. »

ـ « (علاء عبد العظيم) .. طبيب مصرى .. »

قالها (علاء) وهو يشعر كأن مشاكله انتهت .. على الأقل هنا مأوى وشخص يمكن التفاهم معه ..

هز الرجل رأسه فى حيرة وقال :

ـ « مصرى ؟ وماذا تعمل فى هذا الركن من العالم ؟ »

ـ « ما يعمله أى طبيب آخر .. وأنت ؟ »

ـ « ما يعمله أى صياد آخر .. »

ثم تفحص البندقية فى إعجاب ومرر يده على ماسورتها وقال :

ـ « السلاح يجب أن يكون نظيفاً .. صدقنى .. ثمة حقيقة واحدة ينساها الصيادون : السلاح القذر تذكرتك إلى القبر .. »

ثم صب لـ (علاء) بعض الشراب فى الكوب .. اعتذر (علاء) شاكرًا لأنه خمن أن هذا خمر وأن الرجل ثمل .. فقط سأله فى تهذيب :

ـ « هل لديك ما يؤكل ؟ »

ـ « لا يا بنى .. أنا لا أحتفظ إلا بوجبتى التالية .. هل أنت هارب ؟ »

ابتسم (علاء) وقال :

ـ « ثمة (ماساى) هنا ؟ »

ـ « هناك الكثير منهم عليهم اللعنة .. »

ـ « وهناك أسد كذلك ؟ »

ـ « وأى أسد ! إنه معجزة ! »

ـ « من أين جاء ؟ »

ـ « لا أحد يعرف .. لكنه رهيب . مراوغ ذكى كالشيطان .. »

ثم أفرغ الكوب فى جوفه مرة واحدة وصب المزيد لنفسه وقال كأنما يكلم نفسه :

ـ « لكنى سأظفر به .. منذ أعوام وأنا أحاول اللحاق به حتى لم يعد فى حياتى معنى آخر سواه .. هو أسرتى وماضى وسكنى وغدى .. ولو ظفر به إنسان فلن يكون إلا (آرثر مكندو) العجوز .. »

سأله (علاء) وهو يتأمل الكوخ :

ـ « منذ متى بنيت هذا ؟ »

ـ « منذ سنوات أطول من أن أذكرها .. وقد حاولت كثيرًا جدًا لكنى لم أظفر بهذا الأسد ، لكنى أؤكد لك أننى لن أتركه لهؤلاء (الماساى) .. سأعود به إلى (أدنبره) ولسوف يأتى الناس ليروه فوق مدفأتى .. ودعنى أقل لك شيئًا : لا تثق بـ (الماساى) .. إنهم أخطر من الأسد ويكفى أن تثير غضبهم كى لا تجد عنقك فوق رأسك .. ما أكثر ما يثير غضب (الماساى) .. ربما أنك تبتسم كثيرًا .. ربما أنك لا تبتسم كثيرًا .. ربما تقول كلمة بالإنجليزية لها نفس النطق فى لغتهم لكن معناها سبة .. »

ثم عاود تنظيف البندقية ..

سأله (علاء) :

ـ « هل تعرف قرية (كيكويو) اسمها (ناكومو) ؟ »

فكر الصياد قليلاً ثم هز رأسه نفيًا :

ـ « لا أعرفها .. هذه الأسماء كلها تتشابه .. هل جئت من هناك ؟ »

ـ « وأحاول العودة .. »

ـ « لاجدوى من هذه الليلة .. يجب أن تبيت هنا .. وفى الصباح يمكن أن تصل إلى أستراليا لو أردت .. »

فجأة سمع الرجلان صوت زئير يتردد عاليًا فى أرجاء المكان .. فارتجف الصياد وتحسس بندقيته :

ـ « إنه هو ! الشيطان هنا ! »

عاد الزئير يتردد .. فهب الرجل واقفًا ، وقال لـ (علاء) :

ـ « يجب أن أذهب لأرى .. لربما كنت أنت طالعى الحسن .. »

ـ « هل .. هل ستتركنى هنا ؟ »

ـ «لو أردت أن تتبعنى فلا مشكلة .. لكنى لا أنصحك بذلك .. سأكون مشغولاً فى الظلام .. »

فكر (علاء) ثم قرر أن ينتظر هنا .. من الجميل أن تجد مكانًا مغلقًا وسط هذه الأحراش ..

وهكذا اتجه الصياد للباب وخرج .. وبعد دقيقة لم يعد (علاء) يسمع حركته ..

من جديد تردد الزئير المرعب .. ثم ساد الصمت ..

ثم دوت صرخة الرجل ..

عميقة أليمة مريعة يائسة ممزقة مهشمة معذبة مرتاعة .. ووجد (علاء) شعر ذراعيه يتصلب رعبًا ..

ماذا حدث ؟ لماذا لم يطلق الرجل بندقيته ؟

نظر إلى المنضدة فرأى الطلقات موضوعة عليها .. الرجل نسى فى غمرة انفعاله أن يحشو بندقيته بالرصاص ! ولكن ما أغرب هذه الطلقات .. ما كان (علاء) خبيرًا بالسلاح لكنه شعر بأن هذه الطلقات عتيقة حقًا ..

من جديد تتكرر الصرخات ، وما كان طبيبنا الشاب بهذه الشجاعة لكنه ما كان كذلك بهذا الجبن .. لم يتحمل أن يظل هنا بينما الرجل يمزق في الخارج ، لذا غادر الكوخ وهو يرتجف كورقة ويدعو اللّه أن يجد الصياد وحده ..

لربما استطاع أن يسدى له بعض العون .. لربما استطاع ذلك ..

* * *

ابتعد عن الكوخ بضع خطوات .. لكنه حين نظر للوراء لم ير الكوخ .. لابد أن الذعر أفقده حاسة الاتجاه .. لا يهم .. ليجد الصياد أو جثته وبعد هذا يفهم ما حدث ..

لكن صوت الزئير بدأ يتعالى ..

خفيضًا في البدء كعهده الأول .. ثم بدأ يتزايد .. بدأ يتضح ويعلن أنه موجود وأنه حقيقى ..

راح (علاء) يفكر .. إنه لموقف غاية في السوء ،

لكن عليه ألا يفقد صوابه إذا أراد أن يظل حيًا .. من أين تأتى الريح ؟ هذه أمور تبدو سهلة فى السينما .. يجب أن تقف عكس اتجاه الريح .. ولكن كيف ؟ لا توجد ريح أصلاً .. ثم إنك لابد أن تقف فى مكان ما ولابد أن تضرب الريح جزءًا منك .. هل يختلف الأمر لو ضربت وجهك أم ظهرك ؟ الحق أنه لم يفهم قط هذه الأمور ..

بدأ يخفف الخطو نوعًا وهو يتمنى ألا تحدث الهجمة الآن ..

يقولون إنك ستسمع الزئير عاليًا كأنه الرعد ، ثم يبرز الأسد راكضًا نحوك بسرعة ستين كيلومترًا فى الساعة قبل أن تفهم ما يحدث .. الزئير سيشل حركتك ثم ترى العينين فتنوم مغناطيسيًا ، وعندها تسقط على الأرض تحت ثقل الوحش مع العزم الناجم عن اندفاعه .. وتنغلق الأنياب على عنقك فلا تستطيع التنفس .. هذه هى النهاية ..

الآن يتعالى الزئير .. يتعالى ..

وفجأة وجد (علاء) نفسه فى فرجة من الأشجار .. المساحة كلها عارية تسمح بالرؤية ، وأمامه على الأرض كان الأسد ذاته .. كان ينظر له متحفزًا فى واحد من تلك الأوضاع (القططية) المميزة ..

مهيبًا رهيبًا ضخمًا يزأر .. ويريدك ..

لم يكن شىء فى العالم بهذه الضخامة ، وأدرك (علاء) أنه لم يخطئ حين رآه بحجم الثور حين كان يدور حول النار .. دعك من أن عينيه كانتا تشعان نارًا بالفعل .. كل عيون السنوريات تشع نارًا ، لكن لابد من ضوء يعكس فيها هذه النار .. فمن أين جاءت هذه إذن ؟

أطلق الزئير وطوى أذنيه للوراء كما تفعل القطط الغضبى .. وشعر (علاء) بأمعائه ترتجف مع صوت الزئير .. ترى هل هى النهاية حقًا ؟

لا .. شىء ما قال له إنه سيذكرهذه اللحظات فيما بعد .. المفترض ـ وإن كان ليس متأكدًا ـ أن يشعر المقبل على النهاية بأنه مقبل على النهاية .. وهو لايشعر بذلك .. معنى هذا أنه سينجو ..



وأمامه على الأرض كان الأسد ذاته .. كان ينظر له متحفزًا في واحد من تلك الأوضاع (القططية) المميزة

وما الدليل ؟

لا دليل .. لكنه كان محقًا على كل حال ..

انطلق رمح لينغرس على الأرض جوار الأسد ، والتفت الأسد إلى اتجاه الرمح وأطلق زئيرًا مجنونًا وضرب الأرض بكفه ، ثم انهال رمح آخر فأدرك أن الأمر أكبر من قدراته .. وسرعان ما كان يتوارى بين الأعشاب على حين سمع (علاء) الصوت المألوف :

-« واراري .. واراري ! »

هذه المرة كانوا مصممين .. برز (الماساى) من كل صوب ، واختفوا بين الأعشاب العالية وهم يكررون صيحاتهم الوحشية .. الحقيقة أن (علاء) لم يسر قط لرؤية (الماساى) مثلما سر هذه المرة .. لقد نجا بفضلهم مرتين هذه الليلة ، ومن الواضح أن الأسد العجوز يعرف هذه الصيحات جيدًا .. بالنسبة لهؤلاء ليس الأسد وحشًا مريعًا كالبركان ، بل هو مجرد وسيلة للحصول على غطاء رأس فاخر ..

أقسم الفتى ألا يترك هؤلاء القوم إلى أن يعود إلى عالم المدنية ، ولولا الحياء لبكى كالأطفال ..

رأى (طوالا) من بينهم فجرى إليه وقال له فى لهفة :

ـ « فقدت أثرك .. وأنت لم تنتظرنى .. »

قال (طوالا) فى كبرياء وهو يغرس رمحه فى الأرض كالعادة :

ـ « أنت أردت أن تكون وحدك .. أنت خشيت أن يقتلك (الماساى) .. (الماساى) محاربون .. (الماساى) مورانى .. (الماساى) لا يقتلون من ليس عدوهم ومن لا يحمل سلاحًا .. »

لم يحفل (علاء) بالدفاع عن نفسه وقال :

ـ « كيف وجدتمونى ؟ »

ـ « (الماساى) عرفوا أنك فى مكان ما هنا وأن الأسد سيجدك لأنه يشم رائحة الخوف .. (الماساى)

يشمون رائحة الخوف وقد وجدوك فـى نفس الوقت مع الأسد .. »

تعالى صوت الزئير الوحشى من مكان ما من الأعشاب ، وأدرك (علاء) أن هناك معركة تدور هناك ، لكن كان من المستحيل معرفة ماذا يحدث ..

مرت عشر دقائق .. ثم عاد الرجال ..

هذه المرة كانوا يحملون جثة واحد منهم .. كان قد تحول إلى خرقة بالية تنزف منها الدماء من كل موضع تقريبًا .. أما أحد حامليه فكان ينزف من صدره بغزارة ..

وقد أرقدوه على الأرض ووقفوا حوله وقد حنوا رءوسهم ليريحها كل منهم على رمحه المغروس فى الأرض .. هرع (علاء) - على سبيل المجاملة - ليتفحص الرجل .. لكنه أدرك أن ما يفعله سخف .. لم يعد هناك جسد يمكن فحصه أصلاً .. فقط استطاع أن يرى القرطين العملاقين من الخشب فى الأذن ، وقلادة ريش النعام حول العنق ، وكل هذا كان غارقًا فى الدم ..

ومن جديد عاد الرجال إلى وقفتهم المعهودة فى صف واحد .. راحوا يشبون على أطراف أقدامهم ويثبون إلى الهواء .. ضفادع عملاقة لاتكف عن الوثب فى الظلام الذى بدأ يلفظ آخر أنفاسه الآن .. ومن أفواههم راحت أصوات الزفير تتعالى :

ـ « هوه ! هوه ! هفه ! هفه ! »

يبدو أن هذه طقوس جنائزية معروفة لديهم .. ثمة واحد ينشد فيرد عليه الباقون ثم يثب الجميع إلى الهواء فى اللحظة ذاتها ..

بعد هذا ـ صامتين ـ حملوا الجثة عائدين من حيث جاءوا .. بالتأكيد إلى قريتهم ..

ولم يجد طبيبنا الشاب مناصًا من اللحاق بهم ..

إن الأسد لم يمت .. وحتى لو مات فكم من أسرار مخيفة يداريها هذا القفر ..

إن الصبح دان .. لايدرى لماذا لايأتى .. لكنه آت حتمًا .. هو فقط لا يأتى بنفس السرعة التى يأتى بها

حين تكون دافئًا ناعمًا فى فراشك ، تخشى قدومه كى لا تصحو وتواجه العالم البارد القاسى ..

لكنى أراكم تتثاءبون وتفركون عيونًا حمراء يا سادة ، لهذا أوثر أن أتوقف عن السرد عند هذا الجزء ..

موعدنا غدًا عندما يجن الليل كى أحكى لكم كيف نصب (الماساى) كمينًا للأسد ..

* * *



الليلة التاسعة

مرحبًا بكم ..

الليلة أرى أن عددكم قد تضاعف .. بعض الفلاحين الذين كانوا يفضلون النوم على السهر من أجل سماع قصة جيدة ، قد لحقوا بنا .. لابد أنهم سمعوا ملخص ما حدث من رفاقهم .. لهم أقول : مرحبًا بكم .. فاتكم الكثير بحق لأن رؤية (مزى) أهم من سماعه .. ولا أحد يحكى مثل (مزى) العجوز الهرم .. سأموت هذا العام لكنى قد حكيت حكاياتى لجيل كامل منكم ، ولسوف يخرج من بينهم راوٍ آخر تجتمعون لسماعه عند المساء ..

أقول إن (الماساى) حملوا جثة رجلهم الميت ، فعلقوها بين شجرتين إلى جوار الجثث الأربع التى كانت هناك .. لا أحد يدفن فى الأرض .. الأرض عندهم لايمكن تدنيسها بجسد ميت .. وكل جسد ميت عندهم نجس ..

صار الجو نوعًا من الضوء الشاحب .. ومن بعيد كانت الشمس تبزغ فى حياء من خلف (ماونت كاميرون) الرهيب .. لم يزل الظلام بعد لكن لون الأفق صار داميًا مهيبًا ..

نهاية يوم (الماساى) تقترب ..

ويدنو الطبيب الشاب من الرجل الوحيد الذى يمكنه التفاهم معه .. (طوالا) .. ويسأله :

ـ « هل يمكن أن تقودونى إلى القرية حيث وجدتمونى ؟ »

فى اقتضاب قال (طوالا) وهو يربط شيئًا فى رمحه :

ـ « لا يمكننا العودة الآن .. إن الصباح قد جاء .. »

ـ « إذن قل لى الاتجاه الصحيح .. »

ـ « لا يمكنك السير وحيدًا .. إن الأسد يبحث عنك .. »

كل هذا جميل ، لكنى لن أبقى هنا للأبد .. قالتها عينا (علاء) ولم يقلها لسانه ..

قال (طوالا) وقد فطن إلى ما يفكر فيه الفتى :

ـ « الأسد قتل وجرح (الماساى) وصار علينا أن نفتك به قبل الصباح .. سيذهب إلى النهر الآن كى يروى ظمأه .. كل الأسود تحتاج إلى الشرب بعد الافتراس لأنها تمقت مذاق الدم .. »

ـ « وأنتم تريدون قتله هناك ؟ »

ـ « نريد أن ننصب له شركًا هناك .. »

ـ « لا بد أنه ذهب إلى النهر فعلاً .. ما كان يجب إضاعة هذا الوقت .. »

ـ « لن يذهب فورًا .. سيتوارى فى الأحراش حتى يطمئن إلى أننا لسنا خلفه .. »

هنا مال عليه (علاء) وسأله السؤال الذى كان يتمنى سؤاله من البداية :

ـ « من أين جاء هذا الأسد ؟ »

ـ « لا أحد يعرف من أين تأتى الأسود .. »

ـ « أعنى أنه لم يهاجم هذه القرى من قبل .. ليس لديه ملف لو كنت تفهم ما أعنيه .. »

- « (شاكا - موه) معروف فى هذه القرى ، وهم يخافونه ويعتقدون أنه شيطان .. (الماساى) لا يخاف الأسود ولا يخاف الشياطين .. »

وتذكر (علاء) على الفور لفظة (شاكا - موه) التى كان أهل القرية يرددونها فى بداية الليلة السوداء .. (شاكا - موه) هو الأسد إذن .. وكانوا يعرفون زئيره .. أتراه هو من جرح رجلهم ؟ إذن لماذا تكلموا عن فهد ؟

- « بينى وبينك .. ليس هذا الأسد طبيعيًا .. حجمه غير عادى .. زئيره قادم من عالم آخر .. لبدته تذكرنى بجذوة من النيران تتقد حول عنقه .. »

- « كل الأسود تتشابه عند (الماساى) ، وهو يعرف كيف يسلخها ويغطى رأسه بلبدتها .. »

- « لو كانت لدى ثقتكم بالنفس لاعتبرت نفسى سعيدًا .. »

ثم تذكر (علاء) شيئًا فسأل المحارب :

ـ « ما هو حال مريضكم ؟ من يعنى به ؟ »

ـ « لا أحد يعنى به .. إن (إنجاى) يرعى المحاربين الشجعان .. »

ـ « هل لى أن أراه ثانية ؟ »

كان يأمل ـ على الضوء الخافت الذى ملأ الكون ـ أن يفحص المريض ثانية ، وأن يجد ما يثبت أنه كان على خطأ .. أحيانًا يتمنى الطبيب أن يكون على خطأ .. لكن (طوالا) قال له فى صرامة :

ـ « دع المحارب وشأنه .. إن (إنجاى) يعرف ما يصلح له .. »

وهكذا عدل (علاء) عن الإلحاح .. ليس من المستحب أبدًا إغضاب هؤلاء القوم .. هم حتى هذه اللحظة يعاملونه بتحفظ مهذب وهذا خير ما يرجوه من رب العالمين .. إن تاريخهم فى تحطيم رءوس النساء بالهراوات ماثل أمام ذهنه ..

ونهض (طوالا) وكالعادة دون أن يقول شيئًا أو يهتم بأن يتبعه (علاء) قال :

ـ «نحن ذاهبون إلى النهر .. »

ثم رفع عقيرته إلى السماء وصاح :

ـ« واراى !! »

ـ« موه ! »

كانت هذه من رفاقه الذين بدءوا النفخ من أشداقهم كما هى العادة .. هفه .. هفه .. هفه ! وتحرك الجمع فى صف واحد عبر الأحراش ..

طبعًا لم يجد (علاء) إلا أن يتبعهم ..

★ ★ ★

قرب الجدول توقف (الملساى) وراحوا يتهامسون .. كانوا يرقدون بين الأعشاب على بطونهم ، بينما بدا المشهد أمامهم بانوراميًا مكشوفًا بوضوح .. فى ضوء الصباح الوليد الذى هو أقرب إلى الأزرق الباهت جدًا .. وكان الجو قد ازداد برودة ..

كانت الغابة قريبة من الجدول .. ثمة طريق منحدر

يحف به الحصى يقود إلى الماء ، ومن الواضح أنه ما من طريق سواه .. لأن النواحى الأخرى كانت مجموعة من الصخور ، والأسد لا يحب أن يجد نفسه فى وضع غير مريح ، لأن هذه الجداول تغص بالتماسيح التى لا تثير الأسود رعبها ..

دون كلمة توغل الرجال فى الماء عابرين إلى الجهة الأخرى .. لم يكن الجدول عميقًا فالماء يصل منهم إلى الخصور ولا يعلوها ، وكل منهم يحمل رمحه وسيفه عاليًا فى الهواء ، لكن (علاء) لم يجد الشجاعة ليلحق بهم إلا حين فكر فى أن الأسد قد يأتى من هذه الجهة بالذات ..

فى الماء خاض بثيابه الكاملة ، ووصل الماء منتصف رجليه حين تذكر .. صاح فى جذع :

- « التماسيح ! ماذا عن التماسيح ؟ »

لكن (الماساى) واصلوا التقدم فى ثقة ، وما كان يملك اختيارات كافية ، لذا واصل التقدم ، وقال لنفسه : إن التماسيح لو كانت موجودة لأعلنت عن نفسها

قبل هذا .. هؤلاء الرجال يعرفون ما يفعلون بالتأكيد ..

كان الماء باردًا كالثلج يجعلك تفقد حتى الشعور بالبرد ذاته ، وتشعر بأن نصفك السفلى مخدر تمامًا لو قطعوه فلن تشعر بشيء .. ماء بارد قاس محايد ، ليس له صوت كأنه من نوع غير مألوف .. وكانت التيارات قوية لكنها ليست بالدرجة التى تنتزعك من مكانك .. فقط هى تبعدك عن المكان المنتظر بمسافة ، بحيث تتحول رحلتك من خط عمودى على حافة النهر إلى خط مائل ..

أخيرًا يشعر بأنه يدنو من الجهة الأخرى ، وكان الرجال قد وقفوا هناك على بعد عشرين مترًا ، وكانوا يتفقدون شيئًا ما على الأرض بينهم ..

دنا (علاء) أكثر وهو يشعر بضيق بسبب سرواله المبتل الثقيل كأنه فضيحة متحركة .. نفس ما كان يشعر به حين بلل سرواله فى أول أيام المدرسة ..

رأى أحد الرجال يتفحص التراب فى اهتمام ، ثم رفع عينيه وقال شيئًا ما للرجال ، فبدا عليهم الرضا .. قال (طوالا) لـ (علاء) مفسرًا :

ـ «لم يأت الأسد بعد .. لم نتأخر كثيرًا .. »

ورأى أن الرجال يلتفون حول حفرة عميقة فى الأرض .. ربما كان عمقها أربعة أو خمسة أمتار .. دنا أكثر فرأى أن بعض الحراب مغروسة فيها بحيث يتجه طرفها المدبب إلى أعلى ..

متى حفروا هذه الحفرة ؟ أتراها موجودة من قبل ؟ هذه حفرة تحتاج إلى عمل يومين أو ثلاثة .. لا يمكن إنكار أنها عمل جميل متقن وأن الأسد لو سقط هنا فلن تقوم له قائمة ..

ها هم أولاء يغطونها بأعواد الخشب ثم أوراق الشجر .. يضعون طبقة فوق الأخرى لتشكل غطاءً محكمًا ، ثم يهيلون التراب على هذا كله بأظفارهم وسيوفهم .. طبقة كثيفة من التراب تم وضعها حتى لم تعد الحفرة تبتلع المزيد ، وقاموا بتسوية الأرض

من جديد كى لا يبدو أثر لما فعلوه .. لا بد أن هذا استغرق سبع دقائق لا أكثر ..

فى النهاية نهض الرجال ونظروا بعين ناقدة إلى ما قاموا به .. تلك النظرة الناقدة التى صارت راضية ..

قال (طوالا) لـ (علاء) وهم يبتعدون :

ـ « (شاكا ـ موه) يخرج من الدغل إلى الجدول .. (شاكا ـ موه) لن يتجه إلى الحفرة إلا لو أغراه شىء .. »

كانت الفكرة ذاتها قد خطرت لطبيبنا الشاب .. يستطيع الأسد أن يصل إلى الجدول ويشرب ويعود إلى الدغل دون مشكلة ما ، ودون أن يضطر إلى عبور الحفرة .. لكنه لو اتجه لها سيسقط فيها دون شك ، لأنه سيضطر إلى اجتياز ممر ضيق بين الجدول وحاجز الأشجار المصمت ..

ولكن ما الذى يضطره إلى اجتياز هذا الممر ؟

نظر له (طوالا) من فوق ، وقال بوجهه الصخرى الصارم :

ـ «يستطيع الطبيب الأبيض أن يساعد (الماساى) !!»

* * *

صاح (علاء) وقد فهم القصة كلها :

ـ «فهمت ! فى المعتاد تأتون بنعجة أو بقرة توقفونها هناك .. ولما كانت الإمكانات غير متاحة ، فمن الطبيعى أن ألعب أنا دور النعجة البشرية ! »

كان هذا مهينًا .. كان هذا خطيرًا .. كان هذا غير معقول !

ثم سأله فى غيظ ممزوج بالتهكم :

ـ «لماذا لا يفعل أحدكم هذا ؟ »

ـ «لأن (شاكا ـ موه) يعرف رائحة (الماساى) ويخافها .. أما رائحة الخوف المنبعثة منك ، فقد أثارت جنونه ، ولهذا بحث عنك مرتين هذه الليلة ولن يتركك

للمرة الثالثة .. إن بعض الجبن يفيد أكثر من بعض الشجاعة ! »

ـ « رائحتكم تفعم الجو الآن .. »

ـ « الريح تتجه نحو الجانب الآخر من الجدول ، ولسوف تزول رائحتنا سريعًا ، بينما تبقى رائحتك .. »

ـ « أنت تعرف أنى سأرفض .. »

قال (طوالا) فى غير اكتراث :

ـ « (الماساى) يعتقدون أن الرجل الأبيض خال من الشجاعة والكرامة .. إنه يخاف الأسد كطفل صغير .. »

كان هذا كافيًا .. يمكن للرجل أن يتهور إلى الحد الأقصى لو شعر بأن رجولته فى المحك .. ولو تجاوزنا لقلنا إن أكثر أعمال حماقة الشباب ناجمة عن تحد يصعب ابتلاعه .. دعك من أن طبيبنا الشاب كان بطبعه مندفعًا عصبيًا قصير الفتيل ، ومن أنه كان يعرف على الأقل أن (الماساى) موجودون ، وهم يجيدون عملهم .. ثم إنهم أنقذوا حياته مرتين فى ليلة واحدة ..

صعدت دماء التحدى إلى رأسه ومعها دماء الحنق ، وأقسم أن هؤلاء البدائيين أنصاف العراة لن يسخروا منه ..

قال فى صوت مبحوح بعض الشىء :

ـ « ليكن .. ما المطلوب منى بالضبط ؟ »

ـ « أن تقف بلا حراك عند مجموعة الأشجار هذه .. »

نظر (علاء) إلى مجموعة الأشجار الكثيفة المتلوية جوار الحفرة ، وابتلع ريقه .. ثم هز رأسه .. سيفعل ..

وفى بطء ـ كأنما يستعد لجنازته ـ مشى إلى حيث حزام الأشجار وأسند ظهره إلى واحدة منها ، وعقد ذراعيه على صدره فى تحد ، كأنما يقول لهم :

ـ « أية خدمات أخرى ؟ »

بدا أن (طوالا) يبتسم لأن أسنانه البيضاء ظهرت لامعة فى ضوء الشمس الخافت المتسلل على حرج من بين غصون الأشجار ، واستدار مع الرجال



مشى إلى حيث حزام الأشجار وأسند ظهره إلى واحدة منها وعقد ذراعيه على صدره فى تحدٍّ ..

مبتعدين .. ببطء نزلوا إلى الماء ومن جديد عادوا يمشون فى الجدول قاصدين الجهة الأخرى .. لاصوت إلا أجسادهم إذ تضرب الماء فى رفق : فليش ! فليش !

وبعد قليل تواروا عن العيون .. لا أحد يختفى مثل (الماساى) .. لا أحد ..

طائر يحوم فى السماء فى فضول ..

أصوات الطيور تتعالى بالتدريج ..

لقد انتهت الليلة ومعها ليلتنا نحن ..

أراكم تتثاءبون وتفركون عيونًا حمراء يا سادة ، لهذا أوثر أن أتوقف عن السرد عند هذا الجزء ..

موعدنا غدًا عندما يجن الليل كى أحكى ما حدث لـ (علاء) مع الأسد ..

* * *

الليلة العاشرة

مرحبًا بكم ..

كان (علاء) يقف فى مكانه وهو يفكر : لو كان الأسد يفتش عن رائحة الخوف فلسوف يجدها بسهولة ..

صوت دقات قلبه .. صوت الطيور .. إعياء ليلة لم يذق فيها طعم النوم ولا طعم الزاد .. الحق أنه كان فى أسوأ حال ، لكن الأمر سينتهى .. بالتأكيد سينتهى سريعًا .. سوف يظفر (الماساى) بأسدهم ويقودونه إلى القرية .. قرية الجبناء الذين تخلوا عنه فى أثناء نومه .. هناك ينتظر بضع ساعات حتى يتعالى صوت محرك الهليكوبتر الجميل .. وبعدها ..

راح ينظر إلى حزام الأشجار المحيط بالغابة ..

من هذا الموضع سيخرج الأسد بعد دقائق .. سيراه فى النور لأول مرة ، ولسوف يعرف لماذا هو مخيف .. لماذا هو خارق للعادة ..

يرى الآن بعين الخيال الأسد يخرج من الدغل .. يتشمم الهواء .. يتقدم فى تؤدة نحو الجدول .. يرى (علاء) .. يزأر .. يقرر أن مزيدًا من اللحم لن يؤذى أحدًا هذه الليلة .. يتقدم بنفس التؤدة نحوه ، و ... هوب ! صوت الارتطام ويتصاعد الغبار فى الجو ..

تنهد وأدرك أن اللحظات التالية صعبة ، لكنها ستمر ..

الآن يتصاعد صوت لم يسمعه من قبل : كرىىى ! كرىىى !

وهو آت من فوق قمم الأشجار .. يرفع رأسه لأعلى فيدرك حركة قرد يثب من شجرة لأخرى .. هناك قردة أيضًا .. لقد نسيت أمرها .. لكن هناك شيئًا ما يثير هياجها .. هو يعرف هذه الأمور من السينما .. إن الأسد يقترب ..

يتوتر ويتصلب وينظر إلى الناحية الأخرى من الجدول .. لابد أن (الماساى) شعروا بقدوم الوحش .. لابد أنهم ازدادوا التصاقًا بصدورهم إلى الأرض ، ولابد أنهم حبسوا أنفاسهم ..

ولكن .. هذا (طوالا) ..

لماذا يقف ظاهرًا للعيان ؟ لماذا يصرخ فى جنون ويتواثب كالقرد ؟

لماذا غير خططه فجأة ؟

إلا إذا ..

ورفع طبيبنا الشاب عينيه لأعلى .. إلى قمة الشجرة التى يقف تحتها ..

فرأى الأسد العملاق هناك يحتشد بكل ذرة من كيانه للوثب !

* * *

لم يجد (علاء) وقتًا كافيًا للفهم ..

فيما بعد يمكنه أن يفهم ما حدث ، ويمكنه أن يعرف أن الأسد الخبيث خدع الجميع .. لم يمش فى طريق الحصى كما توقعوا ، ولكنه مضى فوق قمم الأشجار قاصدًا فريسته من أعلى ..

من كان يتصور هذا ؟ إن الأشجار تشكل حاجزًا شبه مغلق من هذه الجهة ، ولم يتصور أحد أن الأسد يغش في اللعب ..

تمرغ (علاء) على الأرض في اللحظة التي وثب الأسد فيها .. وشعر بالجسم العملاق يمر على بعد متر منه .. ثم هب على قدميه وتراجع للوراء .. في نفس اللحظة عدل الجسم اتجاه حركته .. الآن دار ليواجهه ..

حقًا كان أضخم أسد يمكن أن تتخيله ، لكن شيئًا ما فيه كان غريبًا .. شيئًا ليس على ما يرام .. كأنه أسد تم رسم ماكياج كامل له لجعله يبدو مريعًا ..

لكن الوقت لا يسمح بالتأملات .. لقد تراجع (علاء) ـ الذي شل الرعب تفكيره ـ إلى الوراء ..

لن يجد (الماساي) الوقت الكافي كي ...

لن يتركه الأسد كي ...

إنه يتأهب للوثب ! رباه !

وثب (علاء) بدوره ، لكنه شعر بالأرض تميد تحت قدميه .. لقد نسى مكان الكمين ! بصعوبة قذف بنفسه إلى الأمام وتشبث بحافة الحفرة وغرس أظفاره فيها وهو يعوى كالذئاب ..

فقط سمع صوت الانهيار العظيم من ورائه .. سمع الزئير المخيف .. سمع صوت الارتطام ..

وتعالى الغبار إلى السماء ليحجب وجه الشمس تمامًا ..

أخيرًا زحف (علاء) إلى شاطئ النجاة ، وارتمى على الغبار يبصق ويبكى وينن ويرتجف ويسب .. ذلك الشعور الرهيب بدنو هذه القوة الطبيعية الكاسحة منك ، لايترك لك فرصة كى تقف على قدميك .. إنهما ترتجفان كجناحى طائر الطنان ..

الآن ينقشع الغبار فيتحامل على نفسه ويقف ..

يختلس نظرة إلى الحفرة ليرى ..

كان الوحش هناك .. مازال حيًا لكن ثلاث حراب

اخترقت جسده .. ثمة واحدة فى عنقه واثنتان فى بطنه وكان يعوى كالبراكين وهو يحاول نزع تلك التى غاصت فى عنقه بأسنانه ..

مشهد شنيع لكنه مريح مطمئن ..

مشهد شنيع لكنه يعنى أنك نجوت فى أقرب مرة دنا فيها الموت منك ..

ونظر (علاء) إلى الجهة الأخرى من الجدول وانتظر أن يظهر (الماساى) .. سينهون عذاب الوحش برماحهم ولسوف يظفرون بجلد الأسد الذى اشتهوه طويلاً ..

هل كان فخورًا ؟ لم يستطع أن يشعر بهذا .. ربما فيما بعد يصير كذلك ، لكنه الآن منته تمامًا ، خاو من الداخل كقطعة خشب فرغ النمل الأبيض من سكناها ..

أين الرجال؟ هل هربوا ؟ كيف لم يشعروا بما حدث ؟

ناداهم بأعلى صوته كما ينادون بعضهم :

- «واراى ! واراى ! »

لا أحد يرد .. والشمس بدأت تضايقه الآن ..

- «واراى ! طوالا »

لا أحد ! غريب هذا ..

نظر إلى الحفرة من جديد فوجد خبرًا سيئًا ..

لقد حرر الأسد نفسه من الحراب الثلاث وراح ينظر لأعلى ، وقد راح الدم ينزف منه ويلوث وجهه فبدا كأنه شيطان رجيم .. التقت العينان للحظة فشعر (علاء) - برغم أنه الأعلى والأقوى الآن - بأنه ينسحق تحت النيران اللاهبة المنعكسة من هاتين العينين ..

نهض الأسد .. اتجه إلى جدار الحفرة ..

أطلق زئيرًا عاليًا ثم وثب ليتشبث بمنتصف الجدار .. حاول أن يبقى مخالبه متمسكة فى الجدار الترابى لكنها تخلت عنه .. أطلق زئيرًا عاتيًا ثم أعاد الكرة ..

وتراجع (علاء) للوراء ..

هذه الحفرة ليست منتقنة تمامًا .. إنها مليئة بالنتوءات الصالحة للتسلق .. لم يفطن لهذا من قبل وبالتأكيد لم يفطن (الماساى) ..

الآن وصل الأسد إلى الثلث الأعلى من الحفرة .. كان الدم يسيل منه كأنما هو صنبور مفتوح ، ومن الواضح أن أحشاءه ثقبت فى أكثر من موقع .. لكنه غاضب .. غاضب مثل .. مثل مدرس الجغرافيا عندما لم يجد أية خارطة مرسومة فى كراستك .. الغضب يجعله يتقدم ببراعة ..

وأخيرًا لم تبق إلا وثبة ..

كانت هناك صخرة جوار (علاء) وتساءل : لماذا لم يفطن لها إلا الآن ؟ فات الأوان .. كان بوسعه أن يلقيها على الأسد الحبيس من دقيقة واحدة . يهرب ؟ ولأين ؟ إن الركض لن يحقق شيئًا لأنه لا أحد يسبق أسدًا ..

رباه ! وهم تكلموا دومًا عن خطر الأسد الجريح ..

وهذا ليس بأى أسد .. إنـه (شاكا ــ موه) .. رعب القبائل وحلم (الماساى) الذين اختفوا ولا يعرف مكانهم أحد ..

أخيرًا صار الأسد خارج الحفرة ..

وعلى بعد خمسة أمتار من الطبيب الشاب ..

* * *

الآن كان (شاكا ــ موه) قد اكتسب ملامح أسطورية لا يمكن نسيانها .. كان وجهه ولبدته المغطيان بالدم يجعلان من منظره شيئًا عسيرًا على التصور ، وكان الغضب قد شوه معالم وجهه بالكامل .. ليست كل وجوه الأسود غاضبة دومًا .. بل الأغلب أن تراها ناعسة هادئة لا مبالية .. لا أراكم الله وجه أسد غاضب أبدًا ..

هو يزحف .. يتقدم نحو (علاء) وقد ألصق بطنه بالأرض ..

هل ينطلق رمح (الماساى) الآن ؟ هل تدوى صيحتهم العظيمة ؟

حدث هذا مرتين فى ليلة واحدة ، لكن من العسير الاعتقاد أن هذا سيحدث فى كل مرة ..

فى اللحظة التالية وثب الوحش على (علاء) ..

وسقط بطلنا الشاب على الأرض ..

أراكم تتثاءبون وتفركون عيونًا حمراء يا سادة ، لهذا أوثر أن أتوقف عن السرد عند هذا الجزء ..

موعدنا غدًا عندما يجن الليل كى أحكى لكم لغز (شاكا ـ موه) ..

* * *



الليلة الحادية عشرة

مرحبًا بكم ..

راح (علاء) يقول لنفسه : سأفقد وعيى الآن .. سأفقد وعيى الآن ..

هذه هى اللحظة التى يموت فيها ضحايا الأسد من الصدمة العصبية قبل أن يجرح الأسد جسدهم ..

سأفقد وعيى الآن ..

لكن وعيه ظل منتبهًا يحلل ويفند ، وقد أغاظه هذا كثيرًا .. ليس هذا هو الوقت المناسب للاحتفاظ بمخ يقظ !

كان يخاف دائمًا ألا يكون من الطراز الذى يموت بسرعة ، وكان يعتقد أنه لو دهمه قطار ومزقه إلى أشلاء فسيظل مخه حيًا يحلل ويعرف أين ذهب كل شلو وما حدث له .. كان يخشى أن يعجز عن الموت حتى يكون الموت ضروريًا ..

إن الموت السريع رحمة ..

لكنه الآن على الأرض والجسد جاثم فوقه كالجبل يحاول الوصول إلى عنقه ، وهو عاجز عن الصراخ أو المقاومة أو ...

ثم لاشىء ..

نعم لا شىء ..

فجأة وجد نفسه راقدا على ظهره فوق الغبار المبتل ، ولم يعد هناك أسد فوقه .. لم يعد هناك شىء !

لايدرى هل فقد الوعى أم نام من فرط إرهاق .. لكنه فتح عينيه ليجد أن الشمس تتوسط السماء ..

نهض مذعورًا وبحث حوله .. لم يكن هناك من شىء إلا الحفرة العميقة التى حفرها (الماساى) ، ومن الغريب أنه لم تكن بها نقطة دم واحدة ..

ما معنى هذا ؟ هل كان هذا كله حلمًا ؟



نهض مذعورًا وبحث حوله .. ولم يكن هناك من شيء إلا الحفرة العميقة ..

مشى وهو يترنح .. مشى وهو لايعرف أين هو ولا من هو .. فقط كان يذكر أن عليه أن يعبر الجدول عائدًا ، وقد فعل هذا وهو مبلبل الفكر .. أنعشه الماء قليلاً ، وبعد ما عبر تذكر أنه لم يفكر فى التماسيح ، لكنه استبعد أن تكون هنا تماسيح أصلاً .. التماسيح التى لاتهاجم السابحين ليلاً ليس لها وجود على الأرجح ..

مشى كثيرًا جدًا .. مشى وهو يترنح عبر أعشاب السافانا التى تبلغ الخصر ..

فى النهاية استطاع أن يرى قرية ، وأن يرى فلاحين وأبقارًا وأطفالاً يلعبون ..

دخل إلى هناك ، وراح يردد دون انقطاع لفظة واحدة : (ناكومو) .. (ناكومو) ..

سمع الرجال يتكلمون بلغة لايعرفها .. ربما كانت السواحلية أو الما .. ثم شعر بهم يسندونه .. إن (ناكومو) قرية معروفة ولابد أنهم سيأخذونه إليها .. فى فمه شعر بالمذاق الحلو الكريه للكاسافا لكنه كان على استعداد لأن يلتهمها كلها دون تردد ..

وجدوا له بغلة يركبها واقتادها اثنان من الرجال مترجلين ، ولابد أن الرحلة لم تستغرق وقتا طويلاً ..

ولم يدر أنه بلغ القرية إلا عندما رأى طائرة الهليكوبتر واقفة وسط ساحة القرية ، ورأى الطيار و (تارو) المترجم ..

هتف (تارو) فى دهشة :

ـ «أين كنت يا دكتور ؟ لقد جئنا هنا فى العاشرة صباحًا فلم نجدك .. لا أحد يعرف أين اختفيت .. »

وقال الطيار :

ـ «كنا على وشك العودة إلى (سافارى) .. لقد اعتبرناك مفقودًا .. »

نظر (علاء) إلى زعيم القرية الذى وقف يتأمله فى دهشة ، وقال موجهًا كلامه للمترجم :

ـ «سل هذا النذل عن سبب اختفائه هو ورجاله أمس .. »

لم يسأل المترجم لأنه كان قد عرف بالفعل ، وقال لـ (علاء) :

ـ « أمس كانت مناسبة معينة لهم .. وقد اضطروا لأن يتركوا القرية ويتواروا .. ويبدو أن الذعر والتدافع جعلهم ينسون أمرك تمامًا .. وهم على ذلك لآسفون .. »

ـ « تركونى نائمًا جوار النار بينما أسد يهاجم القرية .. لقد آثروا تركى كى يجد الأسد ما يلتهمه .. »

قال الطيار وهو ينظر لساعته :

ـ « أرى أن نرحل أولاً وفى الطريق يمكنك أن تعرف القصة .. »

وصعد (علاء) إلى الطائرة التى لم يكن ليصدق أنه سيركبها ثانية ، واستراح جوار النافذة وهو ينظر إلى وجوه الأهالى الخالية من التعبير .. ليس فيها ندم ولا تشفٍ ولا ضيق ولا حزن .. لاشىء على الإطلاق .. إما أنهم أغبياء وإما أنهم لعبوا ببراعة لعبة ما .. ياللسفلة !

دار المحرك وبدأت الطائرة تهتز وهى ترتفع لأعلى ببطء ..

وصغرت القرية حتى صارت مجرد بقعة على الأرض ..على حين عاد (تارو) يسأل (علاء) :

ـ « أين كنت ؟ »

ـ « فررت من الأسد .. وأنقذني بعض محاربي (الماساي) .. وكانت لي معهم قصة تطول .. »

لم تفته تلك النظرة المتبادلة بين المترجم والطيار ، الذي لم تمنعه الخوذة على رأسه وكل الأسلاك الخارجة منه من النظر إلى الوراء وتبادل تلك النظرة مع (تارو) ..

قال (تارو) في كياسة :

ـ « دكتور .. لا أريد أن أبدو أحمق .. لكني أؤكد لك أنه لم يوجد (ماساي) ولا أسد ! »

ـ « عم تتحدث بالضبط ؟ »

ـ « هذا هو السبب الذي جعل هؤلاء القوم يغادرون القرية .. فيما مضى كانت قريتهم من قرى (الماساي) الشهيرة ، ولهذا هم يستعملون لغة (الما) .. وكان

هناك أسد ضخم مخيف يدعى (شاكا ـ مو) يهاجمهم من آن لآخر .. وكانت هناك قصة دامية عن مجموعة من المحاربين الشجعان ، خرجوا للظفر بهذا الأسد ، لكن فتك بهم داء الجدرى تمامًا .. »

ـ « يقال إنه من يومها يعود شبح الأسد ليجوب القرى متوعدًا مهددًا ، من ثم تخرج له أشباح هؤلاء (الماساى) الشجعان لتظفر به .. ويقضون الليل فى مطاردته إلى أن يطلع النهار .. »

ـ « أهل القرى يخافون هذه الليالى جدًا ، ويعرفون بقدومها من صوت زنير الأسد المروع إذ يتردد فى الخلاء .. عندها يغادرون القرية لتكون منصة لتلك المسرحية المروعة التى حدثت منذ قرون هنا .. ويقال إن شبح الأسد لا يؤذى أحدًا وإن (الماساى) لا يفعلون شيئًا .. لكن أحدًا هنا لا يجرؤ على مواجهة المشهد أو انتظاره .. فهو رهيب مخيف بما يكفى »

كان (علاء) يصغى وقد تحول عقله إلى بؤرة مجانين ..

* * *

وبرغم الارتفاع كان بوسعك أن ترى أذرعًا لم يعد باقيًا فيها إلا العظام تتدلى من فوق هذه الأسرة .. لقد كانت مقابر .. وعددها خمسًا ..

* * *

تقول إن (الماساى) حملوا جثة رجلهم الميت ، فعلقوها بين شجرتين إلى جوار الجثث الأربع التى كانت هناك ..

* * *

كان طبيبنا الشاب يعرف أن الجدرى كان أهم أعداء (الماساى) وقد أبادهم كما لم يفعل الرصاص ولا المدافع .. من الوارد تمامًا أن تجد حالة جدرى عند (الماساى) .. لكن المشكلة هى أن الجدرى اختفى من على ظهر البسيطة من عام 1983 وكانت آخر حالة فى الصومال .. بعدها أعلنت منظمة الصحة العالمية أن المرض انقرض وأن بوسع الناس أن يكفوا عن تعاطى لقاحه ..

* * *

الجسد واضح القوة لكنها قوة أبلاها المرض سريعًا .. كان عنقه محاطًا بقلادة سميكة من ريش النعام ، وفي أذنيه قرطان عملاقان من كتل الخشب .. واضح تمامًا أن الرجل يحتضر إن لم يكن قد فعل ذلك فعلاً ..

* * *

هرع (علاء) - على سبيل المجاملة - ليتفحص الرجل .. لكنه أدرك أن ما يفعله سخف .. لم يعد هناك جسد يمكن فحصه أصلاً .. فقط استطاع أن يرى القرطين العملاقين من الخشب في الأذنين ، وقلادة ريش النعام حول العنق ، وكل هذا كان غارقًا في الدم ..

* * *

ولكن ما أغرب هذه الطلقات .. ما كان (علاء) خبيرًا بالسلاح لكنه شعر بأن هذه الطلقات عتيقة حقًا ..

* * *

متى حفروا هذه الحفرة ؟ أتراها موجودة من قبل ؟ هذه حفرة تحتاج إلى عمل يومين أو ثلاثة .. لا يمكن إنكار أنها عمل جميل متقن وأن الأسد لو سقط هنا فلن تقوم له قائمة ..

* * *

الآن بدأ (علاء) يتذكر كل أحداث الليلة وتناقضاتها ..

لقد كانت الإجابة موجودة دائمًا لكنه لم يتوقعها .. هذه من نماذج (الحكمة بأثر رجعى) الشهيرة .. فقط الآن تجد معنى واضحًا سهلاً لهذه النقاط المفككة التافهة ..

كانت هناك خمس مقابر مغلقة قبل محاولة (علاء) الفرار .. بعد محاولته الفرار وبعد ما مات واحد جديد ، صارت المقابر خمسًا لا ستًا ..

لا وجود للجدرى على ظهر الكرة الأرضية اليوم ، لكن من الطبيعى أن تجد شبح (ماساى) مصابًا به .. وهو بهذا يعيد الذكرى الأليمة لموت هؤلاء الفتية ..

مريض الجدرى الذى كان موشكًا على الموت كان الوحيد الذى يحيط عنقه بريش النعام .. ثم جثة الرجل الذى قتله الأسد كان ريش النعام يحيط بعنقها .. هل غادر المريض فراشه وأسهم بصيد الأسد .. أم أن هذا كله كان لهوًا ؟ مجرد مسرحية يتم فيها تبادل الأدوار ؟

منذ متى يسمح للناس بصيد الأسود بهذه الحرية فى إفريقيا الحديثة ؟ الصياد الإسكتلندى لا وجود له لأنه لا يوجد اليوم صيادون أحرار فى (كينيا) يصطادون ما يشاءون أنى يشاءون .. هل هو شبح آخر يمارس دوره فى المسرحية ؟

متى حفر (الماساى) تلك الحفرة ؟ إذا كانت الفكرة ولدت لساعتها فى أذهانهم ؟

الأسد وثب إلى صدرك ثم تلاشى ..

كل شىء يقول إن الأسطورة حقيقية .. هؤلاء القوم لم يكونوا يمارسون الصيد بل كانوا يمثلون

مسرحية مثلوها مرارًا من قبل .. وهم ـ ببساطة ـ يتبادلون الأدوار ..

لكن لا تستطيع أن تصدق ..

كل هذا غريب .. غريب ..

مط (علاء) عنقه وسأل (تارو) :

ـ «لكن الأسد يؤذى .. ماذا حدث للرجل الذى نقلتموه إلى (سافارى) أمس ؟ »

ـ «لقد استطاعوا إنقاذه بمعجزة .. لكن ما هاجمه لم يكن أسدًا .. كان فهدًا انقض عليه وهو يروى أبقاره عند النهر .. قلت لك يا دكتور إن شبح الأسد لا يؤذى أحدًا .. إنه فقط يمارس لعبة مرسومة له منذ قرن .. »

ومال (علاء) برأسه الثقيل ليريحه إلى جدار الطائرة ، وأغمض عينيه ..

* * *

وكانت (برنادت) الحسناء تنتظره فى غرفته .. الزوجة البارة التى لم تر زوجها منذ يوم أو أكثر ..

بعدما التهم طعام الغداء وبعد ما ابتلع الكثير من الأقراص المهدئة قالت له :

- « هل حقًا تؤمن أنك لم تكن تحلم أو تهلوس ؟ »

قال لها وهو ينظر عبر الجدار إلى الأدغال .. إلى القرى الخالية التى هلك سكانها :

- « بدا كل شىء حقيقيًا .. لقد عاد هؤلاء الشجعان الذين أبادتهم الحضارة كى يمارسوا الشىء الذى أجادوه طيلة حياتهم : صيد السباع .. عادوا ليفعموا الغابة بصرخاتهم المخيفة ورقصاتهم المدوخة .. وكى يثيروا الذعر فى نفوس الناس كما كانوا يفعلون من قبل .. بالنسبة لى هم أنقذوا حياتى من موت داهم مرتين فى ليلة واحدة ، ومنحونى رفقتهم دون ثمن .. أجد الآن من العسير علىّ أن أصدق أننى قضيت ليلتى مع أشباح ، وأننا كنا نطارد شبح أسد .. لكنى رأيت قوتين للطبيعة متعارضتين عاتيتين نبيلتين تتحاربان ..

أسد لا يريد سوى الدمار .. و (ماساى) لا يريدون سوى منع هذا الدمار .. ولا أدرى أى القوتين كنت أتمنى لها النصر ، لكنى تمنيت ألا تزول واحدة منهما .. كفانا ما نحن فيه من زيف .. كفانا ما نحن فيه من ادعاء ونفاق .. »

ـ « كان المشهد جليلاً لا يصدق ، وكان شموخهم واعتدادهم بالنفس يفوق كل ما قرأت عنهم ، وأعتقد أنه لو أمكننى أن أراهم ثانية لفعلت .. »

ويدأ جفناه يثقلان ، فقالت له باسمة :

ـ « هل ستحلم بالكوابيس ثانية ؟ »

قال لها دون أن يفتح عينيه :

ـ « لا أدرى .. لكنى أتمنى أن أسمع صرخاتهم من جديد .. »

وبعد قليل رآهم فيما يرى النائم ..

كانوا يركضون خارجين من بين أعشاب (السافانا) التى يبلغ طولها ارتفاع الرجل ..

الهواء يطير خصلات لبدة الأسد التى يلبسها كل منهم على رأسه ، ومن بين خدى كل منهم يخرج الزفير فى إيقاع منتظم : هفه .. هفه .. هفه !

كانوا جميعًا هناك .. من حوله ..

وكانوا يبتسمون ..

أم خيل إليه ذلك ؟

* * *

مرحبًا بكم من جديد ..

أنا (كوتانجا) .. أما بين أبناء جلدتى فأنا أدعى (مزى) .. (مزى) بالسواحلية معناها (العجوز الحكيم) ..

أنا لست قويًا لأرمى بالرمح ، ولا أستطيع الصيد ، ولا أصلح للرعى أو للزراعة بأعوامى التى تجاوزت المائة ..

لكنى أحكى لهم قصصًا تسحرهم كل ليلة ..

وفى المساء يشعلون النار ، ويلتف الرجال المنهكون من حولى ، ويقدمون لى التبغ كى أمضغه ، ويجلسوننى على جذع هذه الشجرة المقطوعة الذى صار كمقعد شامخ ..

ويهتفون بى : هلم (مزى) العجوز : يا من يملك لسان الأجداد .. قص علينا قصة أخرى ..

أقول لهم : انتظروا إلى الغد يا أبناء الشمس كى أحكى لكم قصة مسلية .. إنها تتحدث عن ...

تمت بحمد الله



روايات مصرية للجيب

سافارى

مغامرات طبيب شاب يجاهد
لكى يظل حيا ولكى يظل طبيبا

الماساى

بالإضافة للبدة الأسد يحرص محارب الماساى على انتزاع السنين الأماميتين من فكه الأسفل ، ويقال إن هذا لمنع داء (الكزاز) ويقال إنها لتمييز جماجمهم حتى يعاملوها بالاحترام اللازم .. فإذا قابل محارب (الماساى) جمجمة زميل له ، كور بعض العشب وبصق فيه ثم سد به تجاويف الجمجمة علامة على الاحترام ..

.. ولك أن تتصور هؤلاء المحاربين فارعى القامة وقد ارتدى كل منهم لبدة سبع على رأسه ، وهو يركض فى حقول السافانا ملوحًا برمحه ، كأنه أسد آدمى مخيف ..

لقد كان مشهدًا يجمد الدماء فى العروق ، ومن حسن حظكم أنكم لم تروه .. أنا رأيته كثيرًا !



د. احمد خالد توفيق

مطابع
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

العدد القادم
قشعريرة !